رَبَّهُ نداءً خَفِيّاً[175] ﴾[176] فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يجهر بدعائه ، فإن كان فى ملأ تعرض للفتنة ، ورضى بأقل الثواب . والآخر يخفى ويتضرع ، فكل دعاء المخبتين[177] خفية وتضرعاً ، جعلنا الله وإياكم كذلك .

الباب الثامن والعشرون
إحضار القلوب مع الألسن

إخوانى : إذا دعا الناس ربهم بالألسن ، وبسطوا الايدى ، وقلوبهم عنه ساهية ؛ ألا فأحضروا القلوب مع الألسن ، فإنه أبلغ . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « **إن الله عز وجل لا يستجيب لعبد دعاه عن قلب غافل** »[178] . وقال بعضهم : « **إن الله لا يسمعُ مِنْ ساهٍ** » . وقال بعضهم : « **إن الله لا يسمع من داعٍ ، إلا داع دعا من فيه وقلبه** » ياقوم فراقبوا الله ولا تحرموا أنفسكم إجابة الدعاء بالغفلة عن الله ، وتضرعوا إليه بالقلوب مع الألسن ، فقد وعد الكريم عز وجل إجابة المضطر إذا دعاه[179] ، فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما داعٍ بلسانه ، وقلبه غافل عن الله ساه . والآخر وجل يتضرع بقلبه ولسانه . جعلنا الله وإياكم من الوجلين . آمين .

الباب التاسع والعشرون
التدبر والاعتبار عند التلاوة

إخوانى : وإذا تلا الناس كتاب الله لفضل ثوابه ، ألا فأريدوا بتلاوتكم التدبر والاعتبار بأمثاله وعجائبه ،ووعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، والعمل بحدوده وفرائضه ؛ فإن ذلك أبلغ فى رضوان الله تعالى . وقد روى فى قول الله عز وجل : ﴿ **الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلئكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾[180] .

---

(١٧٥) إن : بمعنى ما . أى : ما كان الدعاء منهم إلا همساً . وكمال الآية : ﴿ ذكر رحمتِ ربك عبده زكريا ﴾ .
(١٧٦) مريم : ٢ ، ٣ .
(١٧٧) المخبتون : الخاشعون المتواضعون وفى الكتاب العزيز : ﴿ وأخبتوا إلى ربهم ﴾ وفيه ﴿ وبشر المخبتين ﴾ .
(١٧٨) أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا ، بلفظ : « إن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل » . انظر (المسند) (٢/١٧٧) . وأخرجه الطبرانى عن ابن عمر ، قال الهيثمى : فيه بشير بن ميمون وهو مجمع على ضعفه . انظر (مجمع الزوائد) (١٠/١٤٨) .
(١٧٩) كما قال سبحانه ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ (النمل: ٦٢) .
(١٨٠) البقرة : ١٢١ .

قال : الذين يعملون بما فيه ، أولئك الذين يؤمنون به[١٨١] . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « **تأتى كل آية من كتاب الله عز وجل ، وتسألنى فريضتها ، وتشهد علىّ الآمرةُ بأنى لم أفعل ، وتشهد على الزاجرةُ بأنى لم أنته ، وأعوذ بالله من قلب لا يخشع** » . إخوانى ولقد بلغنى أحاديث عن رسول الله ﷺ – إن صح ذلك من قوله – أيضاً وإنها القاصمة لظهور أمثالنا ، بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **والذى نفس محمد بيده إن الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان حتى يكبكبوا معهم فى نار جهنم ، فيضجون إلى الله فيقولون : ربنا بأى شيء أرديتنا جميعاً فى النار ، مع من كان يأكل رزقك ويعبد غيرك ، وقد تلونا كتابك فى دار الدنيا ؟! فيقول الله عز وجل : صدق عبادى السوء فلم تُحلُّوا حلاله ولم تحرموا حرامه ، ولم تقفوا عند عجائبه ، ولم تعملوا بحكمه ، فليس العالم كالجاهل الذى لا يعلم فذوقوا العذاب بما كنتم تعملون** »[١٨٢] .وبلغنا عنه – عليه السلام – أنه قال : « **ألا انقضت الأيام والليالى حتى يضع الرجل المصحف أمامه يقلب ورقه وإنها لتلعنه ولا يمر بآية إلا لعنته ، ولا بحرف إلا لعنه . قيل : ولِمَ ذلك يا رسول الله ؟ قال : يمر بهذه الآية : ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾**[١٨٣] **وهذا ظالم ، تقول الآية :كذبت إنك ظالم ثم يمر بهذه الآية : (فيها اجتناب الخمر والميسر) فتقول الآية :(كذب الآخر لعنه الله ما يجتنب خمراً ولا ميسراً .. ويمر بهذه الآية ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾**[١٨٤] **فتقول الآية : (كذب الآخر لعنه الله ، إنه استطاع الحج فما حج ، فما يمر بآية مخالفاً لها إلا لعنته** » . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **من أطاع الله فقد ذكر الله ، وإن قل صومه وصلاته وقراءته القرآن ، ومن عصى**

---

(١٨١) روى نصر بن عيسى عن ابن عمر عن النبى ﷺ – فى هذه الآية : ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : « يتبعونه حق اتباعه » . وقال ابن مسعود : « والذى نفسى بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرّم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً غير تأويله » . وقال ابن عباس : « يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ولا يحرفونه عن مواضعه » . انظر تفسير ابن كثير (١٦٨/١ ، ١٦٩) .

(١٨٢) أخرجه أبو نعيم عن أنس بلفظ « الزبانية أسرع إلى ضعة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان ،فتقول : يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان ؟ فيقال لهم : ليس من علم كمن لا يعلم » . وقال : غريب من حديث أبى طوالة ، تفرد به عنه العمرى . انظر (الحلية) (٢٨٦/٨) .

(١٨٣) هود : ١٨ .

أخرج ابن أبى حاتم – فى معنى الحديث – عن ميمون بن مهران قوله : « إن الرجل ليصلى ويلعن نفسه فى قراءته فيقول : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وإنه لظالم » . انظر (الدر المنثور) للسيوطى (٣٢٥/٣) .

(١٨٤) آل عمران : ٩٧ .

الله لم يذكره ، وإن كثر صلاته وصومه وقراءته القرآن » يا قوم فما عملتم بحدود القرآن وصلتم إلى أجزل الثواب وأعلى المنازل عند الله تعالى ، وإن ضيعتم حدود القرآن وتلوتموه للثواب خشيت أن يفوتكم الثواب بحدوده ، فكم تالٍ له يتبرأ القرآن منه غدا ، ويهوى مع الهاوى بعد تلاوته القرآن ، أعاذنا الله وإياكم من هذا . فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يتلو كتاب الله لفضل ثوابه وعساه مضيعاً لكثير من حدوده فهو كمن لم يتل شيئاً . والآخر يعمل بحدود القرآن وإن كان أعجمياً فهو تالٍ لكتاب الله أجمع ، جعلنا الله وإياكم من العاملين بحدوده . آمين يارب العالمين .

الباب الثلاثون
التطهر من كل حرام قبل الإقدام عليه

إخوانى : وإذا بذل الناس أموالهم فى سبيل الله والخير بعد نفاذ فى العلم ، ألا فاعقلوا كيف تبذلون من أموالكم من المال حلال طيب بّين ومنه حرام بيِّن ، وبينهما شبهات الله أعلم بحالنا فيها ، فأما الحرام فبادروا بالتخلص من تبعات العباد فيه ، وفِرُّوا إلى الله منه كله فرار منهزم من النار مطلوب . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **من كسب مالا حراماً لم يقبل الله منه صدقة ، ولا عتقاً ولا حجاً ، ولا عمرة ، ولاغزواً ، وكتب عليه بقَدْره أوزاراً ، وما بقى منه عند موته كان زاده إلى النار** »(١٨٥) . أعاذنا الله وإياكم من ذلك . أيها الناس ؛ فتخلصوا من خبث أموالكم قبل حلول المنية بكم فإن المصِرَّ على الحرام متعرض للتلف والبوار وما يشعر ، وقد يحسب الجاهلون إذا بذلوا من الحرام فى سبيل الله أنهم يحسنون فى بذلهم ، ونسوا حرامهم ثم التعدى لأمر الله ، فيا ويحهم ! أما انتهى إليهم أن رسول الله ﷺ قال : « **لو أن صاحب المال استشهد فى سبيل الله سبعين مرة لم تكن الشهادة له بتوبة ، والتوبة من الحرام الرد** » . يا قوم فلا تجهلوا جهلهم واسألوا العفو من جُرمكم فيما اجترمتم على الله فى تناولكم الحرام ، فكونوا على وجل من عواقبه ، واحمدوا الله إذا ألهم منه الفرار ، وأنقذكم قبل الورود عليه ، ولولاه لكان ذلك وبالاً وبيلاً . فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما : يلتمس على بذله الحرام ثواباً ، وعساه مستوجب هناك عقاباً .

(١٨٥) أخرجه أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً ، بلفظ : « لا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار .. » انظر (مسند أحمد) (٣٨٧/١) .

والآخر يتطهر من جميع الحرام ، وقد أسقمه الإشفاق[١٨٦] . ألا فبادروا بالتطهر من كل حرام قبل الورود على الله .

الباب الحادى والثلاثون
ليس من الإحسان البذل من الشبهات !

إخوانى : وإذا بذل الناس من الشبهات فى سبيل الخير فرضا على الله سبحانه وتعالى ، ألا فأريدوا بما تبذلون من الشبهات أن تتطهروا من التخاليط فى مكاسبكم عسى بقية المال تطيب قليلاً . وبعد فكونوا وجلين من عواقبها قبل يوم الحساب . فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **يبعث الله عز وجل يوم القيامة قوماً من قبورهم أنتن من الجيفة ، وهم الذين يتلذذون فى الدنيا بفضول أموالهم من الشبهات** » . بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **أعلم الخلقِ بالحلال والحرام إبليس ، فلذلك زين الحرامَ لأهله ، وأدخل على أهل الحلالِ الشبهات** » . وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **من احتوى على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام** »[١٨٧] . وقد يحسب قوم إذا بذلوا من الشبهات فى سبيل الله أنهم يحسنون فى بذلهم ، ونَسُوا الذى غمضوا[١٨٨] كثيراً وقد خلطوا . ألا فلا تجهلوا واسألوا الله العفو من التقلب فى الشبهات ، وكونوا على وجل أن لا يقبل الله ما بذلتم للتخليط الذى كان فيه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « **إذا طاب المكسب زكى العمل ، وسَتُرِدُ فَتَعْلَم ذلك** » . قال بعض أهل العلم : « **لأن تدع درهماً واحداً مخافة ألا يكون حلالاً خير من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لا تدرى أتحل لك أم لا ؟** » . وبعد فإن استقضى الله تعالى حسناتكم ليأتين عليكم ولتعلمن أن ترك الفضول كان أسلم لكم من بذلكم التخاليط والشبهات[١٨٩] ، وعن قريب يكون الورود ، فيا سرور المُخِفِّين يوم

---

(١٨٦) الخوف من الله ومراقبته والوجَل .

(١٨٧) أخرجه مسلم فى (صحيحه) عن النعمان بن بشير بلفظ : « من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام » ، انظر تمام الحديث – كتاب المساقاة – باب أخذ الحلال وترك الشبهات . وابن ماجه فى (سننه) – كتاب الفتن – باب الوقوف عند الشبهات .

(١٨٨) غمّض فلان : ارتكب الذنوب وهو يعرفها . وغمّض على هذا الأمر : مضى وهو يعلم مافيه وغمض عن الشيء تجاوز عنه وأغضى والمراد أنهم مع علمهم بما فى أموالهم من شبهات يتناسون ذلك عند بذلهم . ويغمضون عيونهم .

(١٨٩) المراد أن تحرى الحلال فى المعيشة أسلم عاقبة من بذل الأموال التى فيها شبهة .

الحساب ، وحزن طويل لأهل التكاثر ؛ فاشكروا الله على ماألهم من البذل ، ووق من البخل ، ولولاه لكانت المسألة أضعافاً ، وكانت المصيبة أعظم ، فله المنُّ بذلك . فهذا فضل ما بين الرجلين أحدهما مغموم بما ينال من الشبهات ويتخلى منها ويخاف ألا تقبل منه ، وأمنيته التخلص من الشبهات الممزوجة بالسحت[١٩٠] ، وعساه الذى يبعث من قبره أنتن من الجيفة وما يشعر ، أعاذنا الله وإياكم منها .

الباب الثانى والثلاثون
إرادة أداء الحقوق عند بذل المال مع الشكر لله

إخوانى . وإذا بذل الناس المال فى سبيل الخير من الحلال يزعمون بذلك مضاعفة الجزاء ، ألا فأريدوا بما تبذلون أداء الحقوق التى تجب لله وللعباد ، وابذلوا شكراً للنعم ووجلاً من البخل عن الله سبحانه وتعالى إشفاقاً من مناقشة الحساب ، وابذلوا لتنقذوا أنفسكم . فإنه بلغنا أن الله جل ثناؤه أوحى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام : « **إنما مثل الصدقة كرجل قتل رجلاً فأراد أهل القتيل أن يقتلوه ، فقال : أنا أفدى نفسى فلم يزل يعطى شيئاً بعد شىء حتى أنقذ نفسه من القتل** » . يا قوم ، فبالله عليكم كذلك أنتم كل امرىء قاتل نفسه بالذنوب ، فابذلوا الحلال من المال فى فكاك رقابكم ، قبل أن لا يقبل منكم ، فقد أرى من بذَل الحلالَ بزعمه واحتسب رجاءً لثواب حسناته أكثرَ من خوفه ألا يثاب عليه ، وعساه قليل الإشفاق من مساءلة الله عز وجل إياه فيما يتقلب فيه من الحلال بزعمه ، وهذا غرور وجهل عظيم ، فكونوا من أهل البصائر . يا إخوانى : فكما ترجون أن تقبل منكم حسناتكم ، كذلك كونوا وجلين أن لا يقبل منكم ذلك ؛ فإن الله جل ثناؤه قال : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾[١٩١]. قال بعض أهل العلم : « **أفٍ للدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب** »[١٩٢] . وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **من نُوقِشَ الحساب عُذِّبَ** »[١٩٣] . وبعد فقد أثنى الله عز وجل على الوَجِلين ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا**

---

(١٩٠) السُّحْت : ما خبث وقبح من المكاسب .

(١٩١) المائدة : ٢٧ .

(١٩٢) أورده الغزالى فى الإحياء (٣/١٧٢٢) .

(١٩٣) أخرجه أحمد عن عائشة ، انظر المسند (٦/١٢٧) .

وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾[١٩٤] قال: يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم . ياقوم فتشبهوا بأولى التُّقى فى الوجل على أعمالكم ، فقد كان الرجل من خيار الصحابة – رضى الله عنهم – أمنيته أن تقبل منه حسنة واحدة إشفاقاً ألا يقبل منه يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[١٩٥] . إخوانى واشكروا الله على ماألهم من البذل ووقى من البخل ، واسألوا العفو مما اكتسبتم من الحلال بزعمكم ، فيا سعادة المخفِّين إذا سبقوا ، ويالغموم المثقلين إذا وقفوا . فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما ملتمس الثواب على بذله من الحلال بزعمه ناسٍ لمساءلة الله إياه ، وإن استقصى الإله سبحانه من حسابه ليأتين عليه . والآخر يبذل مثل ذلك وقد أضناه الوجل من مناقشة الحساب ؛ فأمنيته الخلاص من الحقوق التى وجبت عليه فى الحلال ، ولا يطمع فى الفكاك إلا بتجاوز الله وعفوه ؛ لأن الله أوجب الحقوق فى المال الحلال ، فأما الحرام فماله إلا الفرار إلى الرحمن عز وجل ، والتخلى إلى أهله من كله . إخوانى : فتدبروا ما سمعتم ، واعلموا أن أعمال العباد عند الإله سبحانه طبقات ، ولذلك أقدارهم ومنازلهم عنده يعلو بعضها على بعض ؛ بما عقلوا عن الله ، وعلموا كيف يعملون له وإن كثيراً من الناس ليعملون بالبرِّ رغبة فى الثواب ، ولولا الثواب لتثاقلوا عن كثير من البر . ياقوم فاستكثروا من النوافل ، لإكمال الفرائض . فإنه بلغنا أن الله عز وجل ثناؤه يقول : « **لست بناظر فى حقِّ عبدى ، حتى ينظرَ العبدُ فى حقى** »[١٩٦] . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **إنه لن يصلَ إلى قلب العبد روح الله ، ولله قِبَله حق لم يؤده** » ألا فقدموا النية فى أداء حقوق الله فى الأمور كلها ، ولا تشغلوا قلوبكم بمالكم عنده ، وتأسوا بالذين نعتهم رسول الله ﷺ بقوله : « **ألا وإن العالمين هم العلماء بالله ، الفقهاء هم صفوة الله من خلقه** »[١٩٧] . فاعقلوا تأديب الرسول ﷺ ، فمتى أكملتم الفرائض بالنوافل ، وأذهبتم السيئات بالحسنات ، ثم كان لكم بعد ذلك أعمال تزيد على حقوق الله عز وجل ، فإن ذلك مدخر عند ربكم ، والوفاء بما لديه وإن كان لكم فى حقوق الله تقصير . فَيَا لَغمُوم المفرط يوم الحساب ! يسَّر الله علينا وعليكم الحساب آمين يارب العالمين .

---

(١٩٤) المؤمنون : (٦٠) . (١٩٥) المائدة : ٢٧ .

(١٩٦) أورده صاحب كنز العمال – حديث (٤٣١٧٢) ، وعزاه للطبرانى فى الكبير عن ابن عباس ، وضعفه .

(١٩٧) أورده الغزالى فى الإحياء بنحوه (٩٨/١) ، وقال الحافظ العراق : أخرجه ابن حبان ، فى كتاب روضة العقلاء ، والبيهقى فى المدخل موقوفاً على أبى الدرداء ، ولم أجده مرفوعاً . وفى نسخة من المخطوطة . الفقهاء عن الله ، الذين عقلوا عن الله ، وأدوا إليه ماله قبلهم ، ولم تتبع أنفسهم مالهم عنده أولئك صفوة الخالق من خلقه » .

الباب الثالث والثلاثون
الانتفاع بالعلم وشكر النعم

إخوانى : إذا شكر الناس ربهم بالألسن ، وضيعوا حدود النعم ، وفرَّطوا فى آداب الشكر ، فذلك مذموم ، فراقبوا الله واستعملوا كل نعمة من النعم فى الشكر على حالها ، فإن الشكر واجب على العبد فى كل نعمة . واشكروا الله على ما أنعم عليكم من الألسن بكثرة التلاوة والذكر ؛ فإن فرطتم فى ذلك فاستحيوا أن تخوضوا بالألسن فى فنون الآثام كفعل من أرى ! . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **وهل نقول إلا مالك أو عليك ، وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم** »[١٩٨] . ألا واشكروا الله على ما أنعم عليكم من الأبصار بالنظر إلى الحق بالاعتبار شكراً له ، فإن رغبتم عن ذلك فراقبوا الله أن تنظروا بالأبصار إلى الحرام ، فتعصوا الله بنعمته كفعل من أرى ! فإنه بلغنا أن من لم يغُضّ بصره عن النظر إلى الحرام كُحِّلت عيناه بمُلْمُوْلٍ[١٩٩] فى نار جهنم . ألا فراقبوا الله واشكروه على ما أنعم به عليكم من الاستماع إلى القرآن والذكر والمواعظ الحسنة ، فإن ضيعتم ذلك فاستحيوا من الله أن تنصتوا بأسماعكم إلى الهوى والأخابيض[٢٠٠] كفعل من أرى . واشكروه على ما أنعم عليكم من الأيدى يبسطها إلى الخيرات ، فإن قصَّرتم فى ذلك فاستحيوا أن تبسطوها إلى الظلم والأذى كفعل من أرى ! . فإنه بلغنا أن الظلم فى الدنيا ظلمات فى الآخرة ، وتبعات مهلكات[٢٠١] . وبلغنا أن داود عليه السلام رأى محلاً بين السماء والأرض فقال : ما هذا يارب ؟ قال : هذه لعنتى أدخلها بيت كل ظالم . ألا فاتقوا ذلك

---

(١٩٨) أخرجه الترمذى عن معاذ بن جبل - بلفظ «ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» وقال : هذا حديث حسن صحيح . انظر تمام الحديث (صحيح الترمذى) كتاب الإيمان - باب ماجاء فى حرمة الصلاة . وأخرجه ابن ماجه فى سننه - كتاب الفتن - حديث(٣٩٧٣)وأخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧) .

(١٩٩) المُلْمُولُ : المِكْحَال . أى المرود أو الميل الذى يتكحل به .

(٢٠٠) الأخابيض والأخابيض خبصه يخبصه خلطه ، فهم يخلطون الحق بالباطل والأخابيض يراد بها - أيضا - الخوض فى الباطل ومن قوله تعالى ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ وقوله : ﴿ وخضتم كالذى خاضوا ﴾ أى كخوضهم . وهو المناسب هنا .

(٢٠١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، عن عبد الله بن عمر ، انظر صحيح البخارى : كتاب المظالم ، باب الظلم ظلمات يوم القيامة حديث رقم (٢٤٤٧) ، والترمذى فى صحيحه ، وقال : حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر ، انظر صحيح الترمذى (٨/١٨٤ ، ١٨٥) .

واشكروه على ما أنعم من الأقدام ، بالسعى إلى الطاعات ، فإن قصرتم فى ذلك فراقبوا الله أن تسعوا على الأقدام فى الآثام كفعل من أرى ؛ فإن الله جل ثناؤه يقول : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾[٢٠٢] . فكيف بك والأكبال[٢٠٣] فى الأقدام ، والأغلال فى الأعناق ، ألا فاتقوا ذلك ، واشكروه على ما أنعم به من الأقوات فراقبوا ألّا تقوّوْا بها على مكاره الرزّاق عز وجل . فإنه بلغنا أن الله عز وجل يقول : « **عبدى بفضل نعمتى قويت على معصيتى** » ، فحق على الله أن يعذبه بالنار . ألا يا قوم ، فلا تعصوا الله بنعمته ، واشكروه على ما أنعم به عليكم من اللباس أن تُبْلوه فى رضى المنعم ، فإن قصرتم فى ذلك فاستحيوا أن تُبْلوا لباسكم فى مكاره من ألبسكم فلا تأمنوا أن يلبسكم فى القيامة سرابيل من قطران وثياباً من مُقَطّعاتِ النيران . ألا فاتقوا ذلك ، واشكروه على ما أنعم به عليكم من الأهوال أن تُبلوها فى سبيل الوَهّاب فإن بخلتم بها عنه فاستحيوا من الله أن تُنفقوا مواهبه فى مكارهه فتعصوا الله بنعمته كفعل من أرى . فإنه بلغنا « **أن العبد إذا رزقه الله مالاً من حلال فأنفقه فى حرام ، يقول الله عز وجل : اذهبوا به إلى النار ؛ فيمكث فيها ماشاء الله** »[٢٠٤] . فاشكروه على ما أنعم به عليكم من الإيمان بالله بأن تبذلوا المجهود فى رضاه وتبالغوا فى مسراته شكراً لتعظيم ما أنعم به عليكم فإن عجزتم عن المبالغة فى رضوانه فراقبوا الله أن تضيعوا حدود الإيمان فلا تأمنوا سلب الإيمان مع الاستهانة بحدوده واشكروه على ما أنعم به عليكم من العلم فتحروا مسرات الله عز وجل واعملوا بفضائل ما ندبكم إليه من مَحَابّه ؛ فإن عجزتم عن ذلك فراقبوا الله تعالى أن تَعْدوا ما افترض عليكم . وبلغنا : « **أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه** »[٢٠٥] . واشكروه على ما أنعم به عليكم من العقل بالتفكر والتدبر واعتقاد حسن النية والاعتبار ، وشدة الإشفاق ، وطول الحزن فى جميع الجوارح ، وسلامة الصدر للعامة ، والإضمار على مسرات الله ، فإن قصرتم فى ذلك فراقبوا الله واتقوا خبث السرائر وإضمار السوء واعتقاد الغل والحسد والعداوة وأشباهها من المكروهات . واشكروه على ماأنعم به عليكم من العقل بأن تعظموا الله عز وجل وتجلوه وتكرموه

---

(٢٠٢) النور : ٢٤ .

(٢٠٣) الأكبال : القيود .

(٢٠٤) أورده الغزالى فى الإحياء ، وقال الحافظ العراقى : لم أقف له على أصل ، انظر الإحياء (١٨٢٤/٤) .

(٢٠٥) أخرج الدارمى عن أبى الدرداء - موقوفاً - قوله : « إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه » ، انظر سنن الدارمى (٨٢/١) .

وتستحيوا منه وتهابوه وتتقوه وتطيعوه على حسب ما عقلتم من عظمته وكبريائه وعظيم قدره سبحانه وتعالى ، فإن عجزتم عن ذلك فراقبوا الله تعالى أن تكونوا كالذين لا يعظمونه ولا يجلونه ولا يهابونه ولا يستحيون منه ولا يتقونه ولا يطيعونه بل يستهينون بكثير من أمره ؛ فاتقوا الله يا قوم أن تعودوا بعد المعرفة والفهم جُهَّالاً ، ويعود العقل والعلم عليكم وبالاً ، وهذا ونحوه من فضل العلم والعقل وفضل النية والإرادة ، فهذا فرق ما بين العباد ، وقد يستوى الرجلان فى الطاعات والورع وأحدهما أرجح عقلاً وأشد تحرياً لمسرات الله عز وجل وأبلغ فى رضوانه . وهب الله لنا ولكم القيام بحدود النعم والشكر عليها .. إنه جواد كريم .. آمين يارب العالمين .

الباب الرابع والثلاثون
سلوك العلماء

إخوانى : وإذا رأيتم الناس يبدون ما عندهم من العلم ، وفى ذلك يزدرى[٢٠٦] بعضهم على بعض وقلوبهم متنافرة ، والنفوس متباينة فأسروا أموركم بمجهودكم ، وكونوا للشهرة والجدال مبغضين ، ولخمول الذكر محبين وبالوحدة والانفراد آنسين ، وبين الملأ مستوحشين ، وفى الخَلْوةِ والصّمت راغبين ؛ فليس من أحد بخطيئة إلا والله يسأله عنها ما أراد بها . إخوانى : فلا تتعرضوا لمساءلة الله وإياكم فيما لافقر لكم إليه . وبعد فإنى أوصيكم متى أظهرتم من العلم شيئاً فأريدوا به وجه الله وتذاكروا منه بقدر الحاجة إلى بيانه للمريدين خشية الخروج من كتمانه ، فقد كانت المساءلة تقع على عهد السلف - رضى الله عنهم - فيود كل امرىء منهم أن أخاه كفاه الجواب ، وكان الرجل منهم يعلم العلم الكثير ويفقه الفقه الكثير وما يعلم به جاره . وقال بعض الصحابة : رأيت ثلاثمائة بدوى ما منهم الرجل إلا وهو يشتهى الكفاية فى المُفتى[٢٠٧] . وبعد فإن أظهر أحدكم أمره ، وأبدى علمه فنسب إلى الجهل والخطأ لم يؤمن عليه الأَنَفَة[٢٠٨] والامتعاض[٢٠٩] والحقد ، فإن استحسنوا قوله لم يؤمن عليه الفتنة والتزين والإعجاب ، وإن قال بغير علم لم يؤمن

(٢٠٦) ازدرى : حقّر وعاب .
(٢٠٧) أى يتمنى أن يجد عندما يفتيهم به ، من جواب كافٍ شافٍ
(٢٠٨) الأَنَفَة : الكِبر .
(٢٠٩) الامتعاض : الغضب ويقال : امتعض : أى غضب وشق عليه .

عليه الجرح ، وإن تكلف القول لم يؤمن عليه الأنفة أن ينسب إلى الجهل ، فالله عز وجل لا يحب المتكلفين . وبعد فأنّى لك بالسلامة مع الصمت وخمول الذكر فكيف إذا صَبَّت نفسك عالماً يشار إليك وتطاع ، ويغدى ويراح إليك ، ويقبل قولك ويصدر عن رأيك ويرضى لرضاك ويغضب لغضبك ، وعساك تفرّط فى بغض المخالفين لك وتفرط فى حبِّ الموافقين لك وعلام الغيوب مطلع على جَوَلاَن[٢١٠] الضمير فيالها فتنة ما أعظمها على العبد إلا من عصمه الله ! ، فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما يظهر ما عنده من العلم ويتعرض لأنواع الفتن فإما سلامة وإما عطب ! . والآخر يكتم شأنه فسَلم بمَنِّ الله وعصمته . وبعد فإن قال قائل إن تركنا مدارسة العلم ولم ننظر فيما يقع من المسائل أوشك أن يندرس[٢١١] العلم ، فقولوا له : إن الأمة لم تضطر إلى أمثالنا ونحن بحمد الله فى دهر كثير خطباؤه وفيك بحمد الله وفيمن يُظهر ما عنده كفاية تبوحون بالعلم رغبة فى الثواب ومنافسة فى العلو والرفعة وعساكم تغارون كما تغار النساء ، ولو أن طلاب العلم محبوسون فى السجون لتخلصوا إلى الوصول إلى بغيتهم من إظهار العلم للعلو فى الدنيا والرياسة فيها . وبعد فإن فى التأسى بالسَّلف الصَّالح قُدْوة ؛ فإنهم رغبوا فى خمول الذكر وآثروا كتمان شأنهم فهم القادة فكيف بمن هو منقوص والعلم مسجون بالتزين والإعجاب . إخوانى : فعليكم بالستر وإخمال الذكر فإن المظهرين للعلم كثير ؛ فمن راغب فى الثواب ومن متعرض للعقاب[٢١٢] .

الباب الخامس والثلاثون
أعمال البر

إخوانى : وإذا أظهر الناس أعمال البر ليُقتدى بهم ، فأسِرُّوا أعمالكم بمجهودكم ، فإن الفتنة فيها عظيمة ، والجهاد فيها شديد . وبعد : فلسنا للاقتداء موضعاً ، ولسنا –

(٢١٠) جال : جَوْلاً وجَوْلَةً وجَوَلاناً : المراد تقلب الضمير من حال إلى حال وما يجول فيه من انفعالات .
(٢١١) يندرس : يذهب أثره ويتقادم عهده .
(٢١٢) يرى المحاسبى هنا أن كتمان العلم واجب ؛ إلا أنه يقصد العلم الغيبى ؛ أى العلم الذى يبحث عن الساعة والروح ومثل هذه الأمور . أما العلوم التى تبحث عن أسرار الكون ، أو التى تحض على مكارم الأخلاق فلقد أمرنا الدين الحنيف بأن نتعلَّم وأن نُعَلِّم ، وجاء فى الصحاح أن من أشراط الساعة قبض العلم وانتشار الجهل ؛ ولا علم إلا بالتعلُّم . ومصداق هذا من كتاب الله ، قوله عز وجل ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقل رب زدنى علمًا ﴾ . ويؤيد هذا التأويل لكلام المحاسبى كونه متصوفاً ؛ فالمتصوفة ينصب جل اهتمامهم على العلم الغيبى ، ويجتهدون أيما اجتهاد فى كتمانه .

والله – لذلك أهلاً وإنما ذلك للخلفاء المهديين وأئمة المسلمين ، أظهروا قليلاً من كثير أعمالهم لتأديب الأمة وإرشادها ؛ فلا تشهروا أنفسكم ، فإن للشيطان فى إظهار العلم والقول مكائد يستدرج بها كثيراً ، يزين لهم إظهار العلم والعمل ليقتدى بهم ، فأبدى القوم ما عندهم من العلم وأعمال البر طمعاً فى ثواب المتأسين بهم ، وجهلوا الذى حلّ بهم من مكائد الشيطان فبلوا بصنوف الآفات وما يشعرون . يا قوم : وكيف للناقل علمه المتفقد لنفسه ، المتخوِّف من عدوه ، الورع فى أحواله أن يسلم من مكائد الشيطان إذا أسرَّ أعماله وأخفاها ، فكيف بالمفتون إذا أعلن أعماله وأبداها ؟ ألا فلا تتعرضوا للفتنة والبلوى ، فإن لم يضطر إليكم ولا للتأسى بكم فأسرُّوا أموركم بمجهودكم . فإنه بلغنا أن الله يُظِلّ بعرشه – يوم لا ظلّ إلا ظِلّه – رجلاً تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله[٢١٣] . وقال بعض أهل العلم : « **أدركنا أقواماً وما على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى سر يكون علانية أبداً** » . بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **لما خلق الله الأرض ، فمادت بأهلها ؛ فخلق الجبال فصَّيرها أوتاداً للأرض قالت الملائكة : ما خلق الله خلقاً – هو – أشدَّ من الجبال ؛ فخلق الله الحديد فقطع الجبال ، ثم خلق النار فأذابت الحديد ، فأمر الله الماء ، فأطفأ النار ، وأمر الريح فكدَّرت الماء ، فاختلفت الملائكة فقالت : نَسَلِ الربَّ – عز وجل – فقالت : يارب ما أشد ما خلقت من خلقك ؟ قال : لم أخلق خلقاً أشد من ابن آدم حين يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله ؛ فهذا أشد خلق خلقته**»[٢١٤] . وبعد فإنه بلغنا أن أعمال السر تزيد على أعمال العلانية بسبعين ضعفاً[٢١٥] . فهذا فضل ما بين

---

(٢١٣) أخرجه البخارى عن أبى هريرة – انظر (صحيح البخارى) كتاب الزكاة – باب الصدقة باليمين ، وأخرجه مسلم كتاب الزكاة – باب فضل إخفاء الصدقة ، وأحمد فى مسنده (٤٣٩/٢) ، وانظر (الفردوس) للديلمى – حديث (٣٤٩٦٠) وأورده الغزالى فى الإحياء (١٨٦٧/٤) .

(٢١٤) أخرجه أحمد – فى مسنده – عن أنس بن مالك (١٢٤/٣) ، والترمذى – كتاب التفسير (٢٦٣/١٢ ، ٢٦٤) بلفظ : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال ، فعاد بها عليها فاستقرت ؛ فعجبت الملائكة من شدة الجبال ، قالوا : يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد ، قالوا : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم .. النار ، فقالوا : يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال : نعم .. الماء ، قالوا : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الماء ؟ قال : نعم .. الريح ، قالوا : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح ؟ قال : نعم .. ابن آدم تصدَّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله » . وقال : هذا حديث غريب لم أجده مرفوعاً إلا من هذا الوجه وأورده الغزالى فى الإحياء (١٨٦٨/٤) .

(٢١٥) حديث تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين : ضعَّفه البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف ، انظر الإحياء للغزالى (١٨٦٨/٤) .

الرجلين . أحدهما : يظهر ما عنده طمعاً فى الثواب وقد دهله الشيطان وعرَّضه للعقاب . والآخر : أشد احتقاراً لنفسه ، وأوضع لها من أن يراها موضعاً للاقتداء بها .. فالحذَرَ الحذَرَ ! .

الباب السادس والثلاثون
الفرح بالمدح والويل للمادح والممدوح !

إخوانى : وإذا رضى الناس بالمدحة فارتاحت لها أنفسهم ، ألا فراقبوا الله أن ترضوا بذلك ، وكونوا وَجِلين من ضرر المِدْحة فإن لها حلاوةً تسبق إلى القلوب ، ومواقع فى النفوس موجودة ، ولهذا لا يسلم منها إلا القليل ، وذلك لأن منكم من يعمل بأعمال البر لا يريد بها سِواه ، فإذا بدت فضائله أثنى عليه وأكرم وعظم وأذاقه الشيطان حلاوة بالها حلاوة توافق هوى النفس فترتاح لها نفسك . أيها العابد للثناء والمِدْحة ، والتعظيم ، والتبجيل وتعطى عليه وترضى به وهذا من خبايا النفوس وأنت فى غفلة ، وسأضرب لكم مثلاً للمتراضى بالمدحة فإنما مثله كمثل رجل يهزأ فيقال له : إن للعذرة[٢١٦] التى تخرج من جوفك لها رائحة كريح المسك ، فالمغرور يعلم أنه بخلاف الذى قيل له ، والله – عز وجل – عالم بما فى جوفه من النتن والقذر ، ولكن بجهله قد يرضى بما يسخر منه ويستهزىء به مع علمه أنه بخلاف ذلك الذى قيل له بما فى جوفه من النتن[٢١٧] والقذر ، ومع ذلك فهو يفرح بالمِدْحة وكذلك المتلوث فى الذنوب أقذر – والله – وأنتن من العذرة وأولى بالمذمة فى الآخرة والدنيا ، وقد رضى بالمِدْحة جهلاً ، وعساه مستوجب للمقت من ربه ، فمن أخسر منه لو يعلمون !. ياقوم : فمتى بليتم بالمدحة فجاهدوا أنفسكم على نفى ذلك عن القلوب بالكراهة والوجل من المدحة ، وقد أشفق عليكم رسول الله ﷺ منها ونهاكم عن التمادح لعلمه أنها مضرة ، فاتقوا الله أن ترضوا بالمدحة لكم ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الإنس فإنهم يزعمون أنهم إذا أرادوا بأعمال البِرّ وجهَ الله لم يضرهم الفرح والرضى بالمِدْحة فهذا من قياس إبليس وآرائه فتنة لأوليائه . ويحَ المادح والممدوح كيف جهلوا رشدهم فكرهوا مذمة لا تضر بل يُؤْجَرُون عليها ورضوا

---

(٢١٦) العَذِرة : الغائط .

(٢١٧) أى بسبب ما فى جوفه من النتن والقذر .

بالتمادح بينهم بخلاف وصايا رسول الله ﷺ ؟ لقد جهل القوم جهلاً بينا . زعمت أيها المفتون أنك إذا أردت الله تعالى بأعمال البر لم يضرك الفرح والرضى بالمدح ، فإنا ندع ذكر عبادتك ، فالله أعلم بحالك فيها ونرجع إلى النظر فيما ابتدعت من القول . ويحك أيها المفتون أما علمت أن بعض أهل العلم قال : « **من فرح بمدح فقد أمكن الشيطان من الدخول فى بطنه** »[٢١٨]. فهذا العالم قد ذمك بفرحك بالمدحة ولم يذكر عبادتك التى زعمت أنك عليها ولو عملت لغير الله لكنت من رءوس المرائين فما ذكرك للعبادة ؟ وإنما استوجبت المقت بفرحك ورضاك بالمدحة .. علمت البر ولم تعمل به . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **إذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل إذا كانت المدحة أحب إليك من المذمة** »[٢١٩]. فانظر أيها المغرور هل تجد نفسك للمدحة والتعظيم وترضى به وهل تأنس بالمادح وإن كان مفرطاً فى مدحك وهل تكره المذمة وإن كانت حقاً ؟ وهل تغضب على الذام وإن كان صادقاً ؟ فإن كنت كذلك فأنت بئس الرجلين . وإن أكثرت من العبادة ، فإن نفسك من أنفس المحبيّن للمدحة والتعظيم بل أنت أعظم جُرماً ممن يحب المدحة ويُقِرُّ بالإساءة ويعترف بذنبه فهو أرجى للأمانة والعفو منك إذ تزعم أن رضاك وسرورك بالمدحة لا يضرك ! أيها المغرور : وقد بلغنى حديث لم أُتقن إسنادَه – إن صح ذلك فإن فيه بَوارُك – بلغنا « أن رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله ﷺ ؛ فقال رسول الله ﷺ : « **لو كان صاحبُك حاضرًا ، فرضى بالذى قلت ، فمات على ذلك دخل النار** »[٢٢٠]. أيها المفتون وهذا جزاء من اختتم أعمالَه بالرِّضى بالتزكية ويحَك أيها العابد قد كان فى الصحابة كثير ، أرادُوا اللّهَ بأعمالِ البر كإرادتك بزعمك ، وحاشا لله أن تكون مثلهم أو يكونون مثلك لقد كانوا للثناء والإجلال أهلاً ، وهم مع فضلهم وتقواهم أشفق عليهم رسول الله ﷺ من ضرر المدحة ونهاهم عنها ، وقال للمادح : « **ويحَك قطعتَ ظهرَه ، لو سَمِعَك ما أفْلَح إلى يوم القيامة** »[٢٢١]. وقال لهم : « **ألا**

(٢١٨) أورده الغزالى فى الإحياء (١٨٥٩/٤) .

(٢١٩) انظر المصدر السابق (١٨٥٩/٤) .

(٢٢٠) أورده الغزالى فى الإحياء ، وقال الحافظ العراقى : لم أجد له أصلاً ، انظر الإحياء (١٨٥٩/٤) .

(٢٢١) أخرجه البخارى عن أبى موسى – كتاب الشهادات – باب ما يكره من الإطناب فى المدح وليقل ما يعلم . ومسلم عن أبى موسى أيضاً – كتاب الزهد والرقائق – باب النهى عن المدح . كلاهما بلفظ : « سمع النبى ﷺ رجلاً يثنى على رجل ويطريه فى المدحة ، فقال : لقد أهلكتم – أو قطعتم – ظهر الرجل » وأورده الغزالى فى الإحياء (١٨٦٠/٤) .

لاتمادحوا ، وإذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب »[٢٢٢] يقولها ﷺ إشفاقًا على الممدوح وأن يفرح بالمدحة ويرضى بها ، فيضرّ بدينه عساه لا يفلح منها أبدًا ؛ فحذرهم رسول الله ﷺ فتنة المدحة قبل أن تحل بهم وأنت تزعم أنك إذا مدحت فرحت ورضيت بالمدحة لأن ذلك لا يضرك ؛ ويحك !! ما أجهلك بالذى علم رسول الله ﷺ من ضرر المدحة ! وبعد : فتدبروا أحوال الصحابة – رضى الله عنهم – فقد كانوا أعلم بالله تعالى وأخشى له منك ، وأخلص أعمالاً ، وكانوا مع ذلك وجلين من المدحة يكرهونها ويغضبون على المادح إشفاقاً من الفتنة فيها وأنت تزعم أن رضاك بالمدحة لا يضرك ، كأنك أرجح صدقاً وإخلاصاً من السلف،كأنك أقوى على نفى الفتنة منهم ؛ كذبت أيها المفتون ! وقد بلغنا عن عدد من الصحابة – رضى الله عنهم – أنهم كانوا يكرهون المدحة ويغضبون على المادح ، أما أحد الخلفاء فقد سأل رجلاً عن شىء فقال له الرجل : أنت يا أمير المؤمنين خير منى وأعلم ؛ فغضب عليه وقال : إنى لم آمرك أن تزكينى[٢٢٣]. وقيل لبعض الصحابة : لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله ! فوجد[٢٢٤] من قول المادح ، وقال : إنى لأحسبك عرافاً[٢٢٥]، وما يدريك ما يغلق عليه بابه[٢٢٦] من أهله. وبلغنا أن رجلاً مدح بعض السلف فغضب الممدوح، وقال: **« اللهم إن عبدك هذا تقرَّب إلَىَّ بمقتك فأشهدك على مَقْتِه »**[٢٢٧]. فهؤلاء الأخيار كرهوا المِدْحة ، وغضبوا على المادحين وَجَلاً من ضررها ، وأنت تزعم أن فرحك بالمِدحة لا يضرك أُفّ لك ما أبعد شبهك بالقوم ! ويحك إن الصحابة بغضوا المدحة ، وإنك لترتاح إليها ! وغضبوا على المادح الصادق فى مدحتهم ، وإنك لتود المادح الكاذب المفرط فى مدحتك ! ورضوا بالمذمة وهم أطهر الناس منها ، وإنك لتغضب ، وتأنف

---

(٢٢٢) أخرجه مسلم عن المقداد مرفوعا – كتاب الزهد والرقائق – باب النهى عن المدح بلفظ : « إذا رأيتم المداحين ، فاحثوا فى وجوههم التراب » . وأخرجه ابن ماجه – فى سننه – عن المقداد بن عمرو أيضاً – انظر كتاب الأدب – باب المدح .

• والمراد بقوله : « فاحثوا فى وجوههم التراب » أى ردوهم خائبين دون أن تعطوهم شيئاً مقابل مدحهم ، وهذا ما ذهب إليه معظم العلماء .

(٢٢٣) أورده الغزالى فى الإحياء (٤/١٨٦٠) .

(٢٢٤) وَجَدَ : أى غَضِبَ .

(٢٢٥) عرافا كاهنا تتكهن بما يحدث مستقبلا . وفى المخطوطة عرافيا .

(٢٢٦) أورده الغزالى فى الإحياء (٤/١٨٦٠) . والمراد : لست تدرى ، ولا أحد يدرى .. أيغلق بابه على خير أم شر ؟ .

(٢٢٧) انظر المصدر السابق (٤/١٨٦٠) .

من المذمة ، وأنت أولى الناس بها ! ورحموا الذام ، وعَفَوْا عنه وإنك لتحقد عليه ! وهذا من خبايا النفوس للعابدين وأنت فى غفلة ودُهِيت وما تشعر ! أيها المغرور : أترى نفسك طمعت فعملت على الإخلاص لتستوجب الثواب من الله عز و جل ، ثم تأخذ بعد ذلك نصيباً من الفرح بالمدحة والقدر والتعظيم فى الدنيا لتنال ثواب العاجل والآجل .

بئس ما منَّتك نفسك . أفتِنا برأيك أيها المفتون : أىُّ الأمرين أصلح لديننا : أن نخاف ونحذر ما حذّرنا رسولُ الله ﷺ من ضرر المِدحة ، ونجاهد أنفسَنا على نفى السرور من القلوب إذا بُلينا به ، ونستغفر الله تعالى منه ؛ أو نتكل على قولك : إن الفرح والرضى بالمدحة لا يضر ، فنزكى أنفسنا إلى قول المغرور(٢٢٨)، ونرضى المدحة ، ونرتاح لها لرضاك بالمدحة وارتياحك لها ، ثم تحسب أنك مع ذلك من المخلصين ، وعساك بشرِّ المنازل عند الله تعالى غيرَ زَكـيّ ولاَ حميد . أفٍ لك أيها المغرور الغاش لنفسه ، وللأمة تَذكَّر ما أقول لك فإنى ناصح لك : أن تكرهَ المِدحة ، وتخشى الفتنة فيها ، فقد خوَّفك رسول الله ﷺ منها ، ومتى وجدت حلاوة المدحة ، والسرور بها ؛ فجاهد نفسك على نفى ذلك عن قليل ، واستغفر الله تعالى من فرحك بالمدحة كتائبٍ من الذنوب ، وكن بعد المجاهدة والتوبة خائفاً أن لا تكون نصحت فى التوبة ، ولم تجاهد نفسك فى الله حق جهاده ، لأنك لم تصل إلى بغض المدحة ، ولا إلى الغضب على المادح كفعل الصحابة رضى الله عنهم ، فكن عارفاً بإساءتك إذا فرحت بالمدحة ، وكن وجلاً من العقوبة إذا رضيت بها ، وكن مشفقاً لعلك أن تكون عند الله تعالى من المحبين لها ، فإن علمك بها أنفع من العبادة مع الجهل بما وصفنا . وبعد أيها العابد : فما أنت والفرح بالدنيا وهى سجن المؤمن(٢٢٩)، لا يفرح بها ، ولا ينعم فيها ، ولا يطمئن إليها ، وإنما الدنيا دار بلوى وفتن ، ودار هموم وغموم وحزن ، وقد قال آدم عليه السلام : « **كنا نسأل الله من السماء نسْلاً ، فسبانا إبليس بالخطيئة ، فليس ينبغى لنا أن نفرح ، ولا ينبغى لنا إلا البكاء والحزن ، ما كنا فى دار السَّبي ، حتى نُردّ إلى الدار التى سُبينا منها** » . إخوانى : وقبيح بالعاقل أن يفرح بشىء من أسباب الدنيا ، فكيف يمدح الباطل والمغرور ؟! وبعد : فافهم ما أقول لك أيها العابد المسرور بالمدحة ، فإنك لو أتَيتَ من العبادة ما أنِسَتْ بك الطير والسباع والدواب ، وهوام الأرض ،

(٢٢٨) استناداً إلى قول المغرور .

(٢٢٩) حديث « الدنيا سجن المؤمن » أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الزهد حديث رقم (١) ، وابن ماجه فى سننه كتاب الزهد باب (٣) ، وأحمد فى المسند (١٩٧/٢ ، ٣٢٣ ، ٣٨٩ ، ٤٨٥) .

جمعا ، وأثنت عليك به الملائكة ، وفرح بجوارك الإنس والجن أجمعهم ، وحمدوا أمرك فى كل أحوالك ، ومدحوك بأعمالك ، وعرَّفوك بها ومدحت برُّ نفسك ، فهل ترى لك أو لغيرك أن يتكل على ذلك ، أو يغتر بمدحة المخلوقين دون الورود على الله تعالى ، فيتبين لك بماذا ختم لك أمرك ، و تعلم رضى الله عنك من سخطه عليك ، فإما نعيم مقيم وإما عذاب أليم ! أخى : راقب الله – عز وجل – ولا تغتر بالمدحة فكم من معَدَّل فى الناس ليس بعدلٍ عند الله تعالى ولا مَرْضىّ ، وكم من مُجْتَهِدٍ فى العبادة صار للنيران حَطَبًا وصارت عبادتُه هَباءً منثوراً – أولهم إبليس وكم من عبد يصبح مؤمنًا ويُمْسِى كافرًا ويُسلب إيمانه وما يشعر ! فالعاقل الشفيق من سُلب الإيمانَ لا يأمن ولا يفرح بمدح الباطل والغرور ! فلو أتاك الوحى بأنك ممدوح عند ذى العرش ، بالغ فى المخافة والتُّقَى ، فتدبر أمرك ، وقل الحق : بماذا صرت ممدوحاً فى السماء ، ولست لذلك أهلاً ؟! فإن جعلت أنك نلت ذلك بذات نفسك ، وايستوجبته بفعلك لقد ادعيت عظيمًا ، وجهلت أيادى النعم لله – عز وجل – عليك ولولاه لم تكن ممدوحاً مهدياً . يا أخى : فالمنة لله عليك أعظم ! وبذل المجهود لك فى الشكر ألزم ، والوجل والإشفاق من زوال هذه النعمة عليك – آكد وأوجب ، ويحك ! إن عملت فى الشكر ، وأشفقت من سلب النعمة ، فلك فى ذلك شغل شاغل عن الفرح بمدح الباطل ؛ فقد أشفقت الملائكة والأنبياء عليهم السلام فقالوا : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[٢٣٠]. فكيف وأنت مقصر فى كثير مما يجب عليك ، وأنت والله مسئول فى القيامة مطلوب ، فالحزن أولى بك من الفرح ولاسيما بمدح الباطل والغرور ! أخى : تدبر ما أقول لك : مَن المستوجبُ عندك للثناء والمدحة إلا من زينك بالأفاعيل الجميلة ، وحببك بالخصال الممدوحة ؟! ومن تفضل عليك بالأيادى الجسيمة ، والمِنَن العظيمة ، والنعم المتواترة والآلاء المحمودة المتظاهرة ؟! فالمنعم بذلك أولى بالمدحة والثناء والشكر ، أم أنت مستوجبها فى خاصة نفسك ؟! ويحك ! قل الحق : مَن المستوجب للثناء والمدحة والشكر إلا متفضل عليك أن شهدت له بالوحدانية وشغلك بالطاعة ، وحَفِظَك من المعاصى ، وصَرَف عَنْك سرورَ نفسك ومكائد عدوك ، وأعاذك من أهوائك المُرْدِيَة ، وستر عليك القبيح وأظهر لك الجميل وجعلك بستره عليك مُكرّماً فى الناس محموداً . أخى : فالمنعم بذلك أولى بالمِدحة والشكر ، أم أنت مستوجب فى خاصة نفسك التى تأمر

(٢٣٠) آل عمران : ٨ .

بالأسواء[٢٣١]، وتُثبِّطُ عن الخير ، وتشجع على المعاصي وتطغى فى الغى ، وتكفر وتبطر عند الرخاء ، وتقنط عند الضراء ، وتنسى حسن الآلاء وتقصر فى شكر النعماء ، فمن أولى بالمِدحة ؟ وكيف يستوجب المدحة من هذا نعته ؟ أخى : فراقب الله – عز وجل – وبالغ فى الشكر ، وكن وَجِلاً من زوال النعم ، وسلب الإيمان ، ولا تحسب أنك للمدحة أهلاً ، فيهلكك اللهُ ، ويكلك إلى نفسك ، ويزيل عنك النّعم ، ويهتك عنك الستور ، ويبدى الذى يعلم من قبائحك للعالمين ، ويحك لقد عظمت مصيبتك إذا استبدلت بمدحة الملك الأعلى ورضيت بتزكية العبيد الأذلاء ، وآثرت الرفعة فى الدنيا على الدرجات العلى ، وانحططت عن العلو عند الله إلى السفلى !! ويحك ! تدبر ما دهاك به الشيطان ، أراد أن ترضى بتزكية العبيد كى لا تكون عند الله زاكياً ولا حَميدًا ، ويحك إن خير الأمة إذا بلى بالمدحة أحد منهم كره ذلك وساءه ، ومتى وجد فى نفسه شيئاً استغفر الله واستعاذ به من شر ما بلى به ، ونهى المادح عن العود إلى المدحة وشكوا الذى وجدوا من ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمرهم بالاستغفار والاستعاذة من شرها فهؤلاء أهل الفضل والنفى ، وأهل المدحة فى الأرض والسماء وكرهوا المدحة وأبغضوها إشفاقاً من ضررها ، وهذا المتعبد يرتاح إلى المدحة ويرضى بها كأنه من أهلها ، وهو أبعد الناس من استحقاقها ، وسيرد الجاهل إلى ربه فيعرض عليه ذنبه وأقذاره فيجازى بالذى هو أهله أو يعفو الكريم بفضله ؛ فتأسَّوْا بخيار الأمة ولا ترضَوا بالمدحة ولا تتعرضوا للمقت وجاهدوا أنفسكم على مقت ما بليتم من حلاوة المدحة بالكراهة لها كفعل المهتدين فهذا فضل مابين الرجلين ! أحدهما – يكره أن يمدح وهو للمدحة أهل . والآخر : يُحب أن يمدح وهو غير مستوجبها . عصمنا الله وإياكم من السوء برحمته .

الباب السابع والثلاثون
خبايا النفوس لا يعلمها إلا الله !

إخوانى وإذا امتَغَصَ[٢٣٢] الناس من المذمة ، وأنِفُوا منها ، وحقدوا على الذّام ، ألا فراقبوا اللهْ تعالى ، وكونوا على خلافهم ، وجاهدوا أنفسكم على الرضى بالمذمَّة ،

(٢٣١) يقال فى القُبح : رجُلُ سَوْءٍ ، وَعَملُ سَوْءٍ ورجل السَّوْءِ ، والرجُل السَّوء . والجمع أسواء والسُّوءُ : كل ما يغم الإنسان وكل ما يقبح ، واسم جامع للآفات وجمعه – أيضا – أسواء .
(٢٣٢) المغص : المراد هنا الأذى ، امتغص تأذى .

ففيه الخلاص والصدق إن شاء الله تعالى ؛ فتفقدوا أنفسكم عند المذمة ، فإن لها كراهية ومرارة ، تسبق إلى القلوب ، ومنها الامتغاص فى النفوس موجود ؛ لا يسلم منه إلا القليل ! إخوانى : فمتى بليتم بكراهية المذمة ، فجاهدوا أنفسكم على الصبر ، والرضى ونفى الغضب ، فإن الأَنَفَة من المذمة ، تعقب البغضاء ، والحقد على الذام ، وإن الأنفةَ داعيةٌ إلى الكِبر ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك ، وإنما يأنف من المذمة ، ويتمغص منها رجل عظيم فى نفسه ، جاهل بأسوائه ، يحسَب أنه غير مستوجب لِمَا ذُمَّ به ، وإنى سأضرب لك فى ذلك مثلاً ، كمثل كناس الكنيف[٢٣٣] متلوث بالعذرة[٢٣٤] فقيل له : ياكناس ، أنت بالعذرة ملطخ ، فاغسل مابك ، فاستعظم ما قيل له من ذلك ، فأنِفَ ووجد على القائل ، والله إن المتلوث بالذنوب ، لأقذر من العذرة ، وأسوأ حالاً من الكناس ، فما امتعاضه وقد استوجب الذم سراً وجهراً فى الآخرة والأولى ؟! فهذا أخسر منه لو يعلمون ! ما أخلق هذا أن يكون رجلاً عظيمًا فى نفسه حقيراً عند ربه !! إخوانى : فمتى ابتليتم بالمذمة ، فاشمأزت منها أنفسكم ، فلا تعجلوا بالغضب على الذام لكم ، وارجعوا بالنظر والتدبير ، واعقل مخاطبتى إياك ، والتعظيم فى نفسك ، ألم تعلم أن الذام لك لا يخلو من إحدى ثلاث خصال : إما رجلا ذمّك نصحاً لك ، وإشفاقًا عليك ، فهو عظيم المنة ، واجب الطاعة ، فمِمَّ امتغاصُك[٢٣٥] من نصح المشفق عليك ؟! لقد عظمت مصيبتك أن تغضب على من نصحك ! وأما الخَصلة الثانية : فرجل غير ناصح لك ، فذمك بما عرفه فيك ، وعلمه منك ، وأظهره ، بسببك فذا قد أضرَّ بدينه ، ووجب عليك قبول الحق ، إن كان صادقاً فى مقالته ، فدع الوجد عليه ، أو بادر بالإنابة قبل الفضيحة فى الآخرة ، كما افتضحت فى الدنيا ، فإنك إن عنيت بشأنك ، فلك فى نفسك شغل شاغل ؛ عن الموجدة على الذام وإن أبيت قبول الحق أنفة من قبول الحق ، بليت برد الحق على ربك تجبراً منك ، لقد تعرضت لسخط الجبار – عز وجل – ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك . وأما الخصلة الثالثة : فرجل اجترأ على الله بباطل افتراه ؛ بزور يقوله عليك ليسبك به ، فقد أتى البائس على نفسه ! وأما الذى نالك من أذاه ، وقول الزور فيك ، فبما اكتسبت يداك وعقوبة الذنوب ، وكفارة المساوىء ، أو أجر عظيم يساق إليك .

---

(٢٣٣) الكنيف : المِرحَاض .

(٢٣٤) العَذِرَةُ : الغائط .

(٢٣٥) تأذيك .

إخواني فاغتنموا نفع المذمة ، فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **إن حسناتك من عدوك ؛ أكثر من صديقك ؛ لأن صديقك يدعو لك ، فإما يجاب له ، وإما لا ، وأما عدوك فيقع فيك ، ويغتابك ، وإنما هي حسنات يدفعها إليك عفواً صفواً ، ولا يرضى حتى يقول : اللهم أهلكه . فقل : اللهم أصلحه ، اللهم ارجع به ، اللهم تب عليه ؛ فتكتب لك حسنات** »[٢٣٦]. فهذه منافع لك من عدوك ، وقد مكنّك من حسناته في القيامة تحكم فيها ، فالذام والمذمة ، أنفع لك في دينك ، وآخرتك من المادح والمدحة ، و﴿ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾[٢٣٧]. أخي فبادر بالعفو عمّن ذمك ، واغتابك ، عند الفقر إلى عفو الله عنك ، وإياك والحِقد على الذام لك ، فما جرمه إليك بأعظمَ من جرمك ، فيما بينك وبين ربك ، فإن أنت طالبت من ذمك ، واستقضيت عليه ، فلا تأمن من أن يستقضي الله تعالى عليك ، ويطالبك بحقوقه ، فإذا أنت أسوأ الرجلين حالاً . وبعد فلو كنت في طهارة الملائكة من الذنوب ، وفي مثل المرسلين . من ربهم لوجب عليك أن تتبع محبة الله عز وجل ؛ فقد أوجب الله عز وجل العفو ، ومدح الكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس[٢٣٨] فكيف وفيك من الأسواء ما الله به عليم ؟!. ويحك لا يغرنك الشيطان ، بأنك مظلوم فيما ذُهبت به ، فتركن إلى الغرور ، وتأبى الرضي بالمذمة ، وتتيه[٢٣٩] في نفسك ، وتحقد على من ذمك . ويحك وإن كنت بريئًا من هذه الخصلة ، التي ذممت بها ، فإن لها عندك أخوات مُوبقات قد سترها الله عليك ، فلا ترى في نفسك النزاهة عن الذنوب ، ولا تأخذك حمية الجاهلية ، فيتخلى الله عنك ، ويزدريك الذي أنت له أهلٌ ، فيبدو من فضائحك ، وقبيح خبثك ، وتسخيم[٢٤٠] وجهك ما يشغلك عن الموجَدَة على الذام . تدبر ما سمعت أيها العظيم في نفسه واعلم أن الله يعلم اللبيب كيف يتعظ بالمدحة والمذمة إذا بُلي بهما ، يعلم أن المدح لا يليق بأمثالنا ولسنا لذلك أهلاً ، وقد علم الله منا مساوىء كثيرة ، والمذمة أولى بنا من المدحة والثناء ، والمدحة أبغض إلى اللبيب من المذمة ، لعلمه بفسادها للدين ، وقد بغض الله من أحبها ، وذلك اللبيب إذا بلى بالمذمة ، أيقن أن الذى فينا من الأسواء ، أكثر مما به قد ذممناه وأن الإنابة من أسوائنا ، أولى بنا من الوجد

---

(٢٣٦) أورده الغزالي في الإحياء (١٨٦١/٤) .

(٢٣٧) الزمر : ٩ .

(٢٣٨) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ في سورة آل عمران الآية (١٣٤) .

(٢٣٩) تاه : تكبر . والمصدر تيهًا وتيهًا .

(٢٤٠) السُّخام : سواد القِدْر أو الفحم . والمراد السواد .

على الذام لنا ؛ فالناصح المُهدِى إلينا معرفة عيوبنا مستوجب للمحبة ، والشكر منا . وأما المفتون العظيم فى نفسه ، فما يتعظ بمدح ولا بذم ، تجده يرتاح إليها ، ويحب المضِرّ بدينه ، ويتمغص[٢٤١] من المذمة ، كأنه غير مستوجبها ، ويبغض الناصح المهدى إليه عيوبه ؛ فالمادح والذام يضران بدين المستمدح ، وما يشعر . فهذا فضل مابين الرجلين . أحدهما : يتمغص من المذمة ، وهو أولى الناس بها . والآخر يرضى بالمذمة ، وهو أطهر الناس منها . أخى : إن عقلت ما وصفت لك ووعيته ، فإن لك فى رعاية من نفسك ، والاتعاظ بمساوئك ، والنظر فى أحوالك ، والإنابة إلى مولاك من مساوئك شغلاً شاغلاً عن الموجدة على غيرك ، فراقب الله ، واحذر أوزار الحقد ، والغضب على الذام ، وتضرع إلى الله عز وجل ، فى دوام ستره ، وتمام النعمة ، فلن تزال بخير ، ما كنت فى كنف الله عز وجل عالمًا بأياديه ، عاملاً فى الشكر له ، معترفًا بالإساءة والتقصير ، خاضِعاً للحق متواضعًا لله ، فإن ذلك أبلغُ فى رضوانه ، وأوصل إلى درجة الثناء ، والمدحة ، من الله عز وجل ، ومن ملائكته فى مواقف القيامة ، وزمرة الأولياء ، وسأصف لكم فى الذم ، والمدح صفات ، من خبايا النفوس من العابدين بزعمهم ، عسى الله عز وجل أن ينفع بمعرفتها ، وذلك أن منهم من يعمل بأنواع البرّ لله ، لا يريد بها سواه ، ولا يحب أن يحمده الناس ، وإن بلى بالمدحة نفى حبها عن قلبه ؛ فهذا كله حسن ؛ فيه دلائل على الإخلاص ، غير أنى أخشى على العابد ، مكائد من خبايا النفوس ؛ يعجز مثلى عن القيام بها ، وذلك أنى أحسب عابدكم إذا مدح وعُظِّم ، لم يجد فى نفسه الكراهة ، مثل غم المذمة لا ولا يجد من استقبال المادح بالغضب عليه ، كما يجد على الذام ، وعسى أن تكون مجالسة المادح ، ومكالمته الدهر أخف على قلب العابد ، من النظر إلى الذام ، ومكالمته إياه مرة واحدة ، وعسى العابد أن يتحمل للمادح ، ويتكفل قضاء حوائجه بالبشاشة ، وعساه لا يسعى للذام فى حاجته ، ولا يجود له بقيراط ، وعسى قطيعة الذام دهره ، أهون على العابد من هجران المادح ، وعسى الكبيرة تكون من المادح أخف على قلب العابد ، والصغيرة ، من الذام أعظم عند عند العابد من كبائر المادح ، وهذا وأشباهه من خفايا النفوس ، والعابد فى غفلة من الزلة إمهالاً ، أما بلغك ، أن العبد لا يستكمل حقيقة الإيمان حتى يكون ذامه ، ومادحه ، فى الحق عنده سواء ، وعسى عابدكم لا يساوى بين الذام ، والمادح فى البرّ ،

---

(٢٤١) يتأذى .

والتكرمة لهما ، ولا يساوى لهما فى الموجدة عليهما ؛ فالعابد منقوص بذلك عن حقيقة الصدق ، وما يشعر . فمتى شئتم فاسألوا عابدكم عن نفسه ، وليقل الحق ، هل يجد للمدحة ، والتعظيم مثل كراهة المذمة ؟ وهل يرضى بالمذمة كرضاه بالمدحة ؟ وهل يستقبل الذام كما يستقبل المادح ؟ وهل يخف على قلبه الذام كما يخف على قلبه المادح ؟ فإن زعم أن الذام ، والمادح ، يجريان عنده مجرى واحد ، والمدح والذم عنده سواء ، فإن جعلوا فى ناصية العابد عُصابة يعرف بها ، ويشار إليه ، فإنه إمام زمانكم ، إن كان كما يزعم ، والله سائله عن دعواه ، وعسى يرجع عند المساءلة عما ادعاه ؛ وإن أقر عابدكم أن المدحة ، والمذمة ، لا يستويان عنده ، فالصدق أولى به وبنا ، والاعتراف أنجى له ولنا ، ولذلك المادح والذام لا يستويان عنده ، وفقنا الله وإياكم للصدق فى جميع الأحوال . إخوانى : سأصف لكم من أحوال الصادق عند المدحة ، والمذمة ؛ صفاتٍ عسى الله أن ينفع بمعرفتها ، وذلك أن أخلاق الصادق ، أن رضاه بالمذمة ، إذ صارت له حسنات أكثر من رضاه بالمدحة ، لأن المدحة تضر ولا تنفع . من أخلاق الصادق ، أن يرق على الذام ، ويرحمه ، ويخصه بالدعاء أكثر ، لنفى الحقد من قلبه ، ويتفضل عليه عند حاجته ، أفتحسبون عابدكم يفعل ذلك ؟! وبعد : فإن أولى الأشياء أن يحبه العابد ؛ لأنه ينفعه فى الآخرة ويزيل حسناته ، ولا سيما إن لم يضر بدنياه ، وذلك أن المذمة ، والغيبة ، لا ينقصان من رزقه ، وينفعانه فى آخرته ، ويزيدانه فى حسناته ، وأحسب عابدكم يقول : لا حاجة لى فى المذمة ، ولا فى حسناتها ، فأين الصدق ؟! ويحك ! فما عذرك فى بغض المذمة النافعة لك فى الآخرة ، وأنت تزعم أنك طالب للحسنات ، وهذه حسنات لك من غير اكتساب ، ولا تعب ولا نصب ، فإن زعمت أنك إنما غضبت على الذام المغتاب ، لأنه عصى الله فيما اغتابك به ، فما ترى فى الناس من هو أكثر ذنوباً ، وأعظم جرماً ، من الذى اغتابك ، وذمك ، ومالك لا تغضب على نفسك إذا ذممت عباد الله وهذا من خبايا النفوس وأنت فى غفلة . أيها العابد فكن على يقين أن نفسك لنفسك تغضب ومن ذمها امتعضت ، وتعتدى على الله بغضبك على الذام المغتاب ، فتزداد من الله بعداً ، ألا وإن أولى الأشياء بأن يبغضه العابد لأنه أضر بعبادته لاسيما إن لم تزد فى رزقه تلك المدحة ، فإن المدحة لا تزيد فى الرزق شيئًا وتضر بالعبادة ، ما حجة العابد ، إذا لم يكره المدحة ؟! وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **رأس التواضع أن تكره أن تُذكر بالبر والتقوى** »[٢٤٢].

(٢٤٢) أورده الغزالى فى الإحياء وقال الحافظ العراقى : لم أجد له أصلاً انظر الإحياء (١٨٦٣/٤) .

ويحك أيها العابد ! إن مادحك أحق بالهجران من ذامك ؛ لأن المذمة حسنات ، والمادح قد عرَّضك بالمدحة للفتنة وعرَّض عبادتك للتلف ، وقد نهى رسول الله ﷺ عنها فقال للمادح : « **ويحك قطعت ظهره فلو سمعك - يعنى الممدوح - ما أفلح إلى يوم القيامة** »[٢٤٣]. فقوله الحق ﷺ ، مشفقاً عليك ، وعلى عبادتك ، فلم يكترث المادح لنهى رسول الله ﷺ إياه عن المدحة . ولم يبال - بل لا أفلح أبداً ؛ فهذا أولى بالهجران ، إذ عصى رسول الله ﷺ ، وأنت لم تكترث لعطبك . وأحسبك أيها العابد تبرم وتكره هذا المادح ، أن تمحق المدحة عبادتك ، وعساك لا تفلح مع المدحة أبداً ، وأنت غير مكترث لذلك ، ولا يروعك قول رسول الله ﷺ ، ولا تحزن للمدحة فأين الصدق ؟! ويحك ! وذلك إن امتحنت ، وابتليت بالمذمة ، وسقوط المنزلة عند الناس ، ولا ترى خمول الذكر نعمة ، ولا ترضى بالمذمة النافعة لك فى الآخرة ، ولا تتعظ بها ، ولا تشغل بالإنابة عن الموجدة على الذام ، فأين الصدق ؟! ويحك ما بلغك أن كعباً قال : « **لن تنالوا شرف الآخرة ، حتى تسقطوا أنفسكم ، وأعمالكم ، وحتى تكرهوا المدحة ، ولا تبالوا بالمذمة** » . أيها المغرور العابد : كفى بك جهلاً ، أن تغضب على الذام لك ، وباغتيابه لك حسنات ، وتحب المادح وقد عرَّضك للتلف ، وتأنف من المذمة - وأنت مستوجبها - والمذمة تنفعك فى الآخرة ، وأنت لها كاره ، وترضى بالمدحة ، ولست من أهلها ، وهى تضر بدينك ، وأنت لا تحزن لها ، فأين الصدق ؟! ويحك فإن زعمت أن كراهتك للمذمة ، لأنك من الأسواء طاهر ، وأن رضاك بالمدحة لأنك مستوجبها ، فأنت حينئذ أهل أن يضحك بك الضاحكون ، ويستهزىء بك المستهزئون ، وأنت مستوجب للمقت من ربك . أيها العابد تدبر ما وصفت لك من خبايا النفوس ، هل تجد شيئًا منها أم أنت طاهر من كلها ؟ أم اجتمعت كلها فيك جميعا ؟ فتدبر ما وصفنا من أخلاق الصادق عند المدح ، والذم ، هل تجد شيئًا فيك منها ؟ وتزعم أنك أكملتها كلها ! أيها العابد إنك من فقراء آخر الزمان ، ومن نفاية الأمة ، لا أحسبك تقوى على هجران المادح ، والإحسان إلى الذام دهرك هذا - والله يمن على من يشاء من عباده ، وأن الذى وصفنا من أخلاق الصادق ، لبعيد عن أمثالنا ، فليتك أيها العابد ، لا تعجب بالتعظيم لك ، ولا ترتاح للمدح بالباطل ، وليتك أوداج[٢٤٤] لا تنتفخ غضبًا من المذمة ، وليتك لا تحقد على الذام حتى تنتقم ،

(٢٤٣) سبق تخريجه .

(٢٤٤) الوَدَجُ والوِدَاجُ : عرق فى العنق يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة . (ج) أوداج . وانتفاخ الأوداج كناية عن الغضب .

وتشفى صدرك ، وإن ملكت نفسك عن ذاك ، فأنت إمام زمانك ، وواحد فى دهرك واعلم أيها العابد إن كنت فى الأصل تريد الله عز وجل ، فأنت بعيد عن الصدق فى أحوالك ، هيهات ! ما أقعدك عن الصادقين . ياقوم : جاهدوا أنفسكم على بغض المدحة ، والرضى بالمذمة ، فإنه بلغنا حديث – إن صح ذلك من قول رسول الله ﷺ ، إنه لقاصم الظهر لأمثالنا[٢٤٥]. وبلغنا عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **ويل للصائم ، وويل للقائم ، وويل لصاحب الصوف إلا من ، فقيل إلا من يارسول الله ؟ قال : إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا ، وأبغض المِدحَة واستحب المذمَة** »[٢٤٦]. ياقوم فمتى نصير إلى حب المذمة ، ونبغض المدحة ، ووالله ما سلمنا من حب المدحة ، ولا كراهية المذمة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وإياه نسأل العصمة ، والعفو ، والصفح ، والنجاة ، إنه جواد كريم . ياقوم ، فبمثل هذه الآداب ، فتقربوا إلى الله تعالى ، فإن ذلك أبلغ فى رضوان الله تعالى من العبادة مع الجهل بما وصفنا . إخوانى ، وبعد فإن الناس فى المدح والذم أصناف ، فمنهم من يتمنى المدحة ويعمل بأنواع البر حبّاً لها[٢٤٧]، فهذا هالك ، أو يتوب الله عليه . ومنهم من لا يريد المدحة ، فإذا بلى بها ، سبق السرور ، فجاهد عن نفى ذلك عن قلبه ؛ فهذا فى طريق المجاهدة ، يقع مراراً ، ويقوم مرة ، ويرجى له الخير ، وهو على خطر . ومنهم من إذا بلى بالمدحة لم يُسر بها ، لعلمه بضررها ، غير أنه لا يجد فى نفسه الكراهة ، ولا الاغتمام لها ، فهو على خير إن شاء الله ، وبقى عليه من الإخلاص بقايا . ومنهم من إذا بلى بالمدحة ساءته ، وكرهها فى نفسه ، وعجز عن الغضب على المادح ، فهو على خير ، ويرجى له الوصول إلى الصدق . ومنهم من إذا بلى بالمدحة غضب منها ، ووجد على المادح ، فهذا فى باب المدحة على سبيل هدى ، وبقى عليه فى باب المذمة بقايا . ألا وإن الناس عند المذمة أصناف : فمنهم من إذا ذُمَّ غضب على الذام ، وحقد عليه ، والتمس الانتقام ، فهذا متجبر هالك ، أو يتوب الله عليه . ومنهم من إذا بلى بالمذمة يتمغص[٢٤٨] من مقابلة الذام إظهاراً للورع تزينًا ورياء ، ويلتمس مما قيل فيه المعاذير ، وإن نيران المذمة تستعر فى جوفه ، يتمنى فضائح الذام ، وبواره ، فهذا قريب من الأول ، ودونه فى الهلاك . ومنهم من إذا بلى بالمذمة يتمغص منها ، ويتجرع مرارتها خشية أن يعاتب بأكثر منها ،

---

(٢٤٥) سبق تخريجه .

(٢٤٦) أورده الغزالى فى الإحياء وقال الحافظ العراقى : لم أجده هكذا ، انظر الإحياء (٤/١٨٦٣، ١٨٦٤) .

(٢٤٧) أى حباً للمدحة .

(٢٤٨) تمغص الشىء فلاناً ومنه آذاه .

وإن بغض المذمة مستوطن فى قلبه . ومنهم من إذا بلى بالمذمة كرهها ، ووجد منها ، وجاهد نفسه على الصبر عليها ، رغبة فى الثواب ، لا يحقد على من ذمه ، غير أنه يستثقل الذام ، فهذا طريق المجاهدة يقع مراراً ويقوم مرة . ومنهم من إذا بلى بالمذمة ، سبق إليه بالكراهية ، فيرجع ، ويتيقظ ، ويعلم أنه مستوجبها فيسلى ذلك عنه ، غير أن حال الذام فى قلبه ، بخلاف حال من لم يذمه ، فهذا على خير ، وبقى عليه من الصدق بقايا . ومنهم من إذا بلى بالمذمة لم يكرهها ، لكنه تواضع، وخضع لها ، وأجرى الذام له ، ومن لم يذمه بمنزلة واحدة ، فهذا على المحجة يرجى له الوصول إلى الصدق . ومنهم من يقول فى قلبه الحق[٢٤٩] ويرجع بالبغضاء على نفسه ، فإذا بلى بالمذمة – رضى بها – وعلم أنه أهل لها ، ولأكثر منها ، وما صرف عنه منها ، علم أن ذلك ستر الله ، وكانت المذمة غنيمة له ، إذ صار بالمذمة أوضع الناس ، وأحقر عندهم ، وأسلم لدينه ، وصارت المذمة ، له حسنات من غير سعى ، ولا نصب ، فهذا واحد فى زمانه . وبعد فإن جميعهم ينتقلون عند المدح ، والذم ، من حالة إلى حالٍ فى الساعة واليوم ، والشهر واليوم ، فمنتقل عن حاله متقدم مقبل ، ومنتقل عن حالة مولٍّ مدبر ، فتفقدوا الأصناف فى أيها تجاهدون أنفسكم . وبلغنا أن الرياء ، بضع وسبعون باباً وروى « **أن الرياء ، أخفى من دبيب النمل على الصفاة** »[٢٥٠]. وعقلى يقصر عن دبيب النمل ، فكيف ما هو أخفى منه ؟ وفيما وصفنا كفاية للعاقلين ، فكيف لعابدكم أن يقوم ببعض هذا ؟ وكيف بكل ما وصفنا ؟ وهب الله لنا ولكم ، الصدق فى جميع الأحوال .

الباب الثامن والثلاثون
تفقد القلوب وبيان معاصيها

إخوانى : وإذا تورع الناس عن ذنوب الجوارح الظاهرة ، فغضوا الابصار ، وانصتوا عن الغيبة ، وكفوا عن الظلم ، وتركوا الخوض فى الآثام وتخلصوا من تناول الحرام ، وكونوا من أتركهم له . ياقوم وتفقدوا مع ذلك ذنوب القلوب ، فإنهن المهلكات القاصمات ، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ ، قال : « **فى ابن آدم مُضْغَةٌ ، إذا فسدت فسد الجسد كله ، وإذا صلحت صلح الجسد كله ، ألا وهو القلب** »[٢٥١] وقال

(٢٤٩) فى المخطوطة : المحق .

(٢٥٠) أخرجه أحمد فى المسند عن أبى موسى الأشعرى ، انظر المسند (٤٠٣/٤) . والصفاة : الحجر العريض الأملس .

(٢٥١) أخرجه البخارى عن النعمان بن البشير – انظر تمام الحديث كتاب الإيمان – باب فضل من استبرأ لدينه . =

عليه الصلاة والسلام : « **من أصلح جُوّانيّه ، أصلح الله بَرّانيّه ، ومن أصلح سريرته ، أصلح الله علانِيَتَه** »[٢٥٢]. وقال بعض أهل العلم : « **السرائر التي تخفى على الناس ، وهي عند الله بوَادٍ – اطلبوا دواءهن ، وما دواؤهن إلا أن تتوبوا وتعدلوا** » . وبلغنا أن سليمان عليه السلام قال : « **من أفسد جوانيه ، أفسد الله برانيه** » . ألا فتدبروا عظم معاصى القلوب ، فإن منها : الشك ، والشرك ، والنفاق ، والكفر ، ومنها الاغترار بالله عز وجل ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، ومن معاصى القلوب : احتقار الذنوب ، والتسويف بالإنابة ، وقلة الاكتراث بتراكم الأوزار ، والإصرار على المعاصى ، والتيه ، والرياء . ومن معاصى القلوب ، العجب ، والنفاق ، والتفاخر ، وحب الزينة ، والمباهاة فى الدنيا . ومن معاصى القلوب التعزز ، والتكبر ، والزهو ، والأنفة من المسكنة ، ومن كثير من أعمال الحلال ، يرضاها الله ، ويحبها ، والعبد يأنفها . ومن معاصى القلوب ، التقرب إلى الأغنياء ، والخضوع لهم ، والتباعد من الفقراء ، والأنفة منهم . ومن معاصى القلوب ، النكث ، والخيانة ، والغدر . ومن معاصى القلوب ، الحسد ، والغل ، والحقد ، والشماتة ، والعداوة ، والبغضاء ، وسوء الظن ، والتّجَسُّس ، وإضمار السوء ، والتربص بالدوائر . ومن معاصى القلوب ، مساعدة الهوى ، ومخالفة الحق . ومن معاصى القلوب ، الرضى بالهوى ، والحب ، والبغض بالهوى . ومن معاصى القلوب ، الجفاء ، والقطيعة ، والقسوة ، وقلة الرحمة . ومن معاصى القلوب ، الأمانى ، والحرص ، والشره ، والطمع ، والطيرة . ومن معاصى القلوب ، الطغيان بالمال ، والفرح بإقبال الدنيا . ومن معاصى القلوب ، استقلال الرزق ، واحتقار النعم ، واستبطاء الله فى القطيعة . ومن معاصى القلوب ، استعظام الدنيا ، والحزن على مافات منها . ومن معاصى القلوب ، الأسف على فوات أهوائها ، والشره بموافقة شهواتها المردية . ومن معاصى القلوب الاستهانة بعلم الله تعالى بمساوئها ، ومنها قلة الحياء باطلاع الله عليها . وقد بلغنا أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « **يا صاحب الذنب لا تأمن من لا يؤمن ، ولا تأمن من تتبع الذنب ، فإن قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال من الملائكة ، وأنت على الذنب أعظم من الذنب إذا**

= وأخرجه مسلم فى صحيحه عن النعمان أيضًا – انظر كتاب المساقاة – باب أخذ الحلال وترك الشبهات .

(٢٥٢) أخرجه الديلمى عن قدامة بلفظ : « من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله مابينه وبين الناس ، ومن أصلح جوّانيّه أصلح الله برانيّه ، ومن أراد وجه الله أناله الله وجهه ووجوه الناس ، ومن أراد وجوه الخلق منعه الله وجهه ووجوه الخلق » انظر (الفردوس بمأثور الخطاب) (٥٨١/٣) حديث (٥٨١٩) .

علمته وعملته ، وفزعك من الريح إذا هبت وحركت ستر بابك وأنت على الذنب ، ولا يفرق[٢٥٣] فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته » . تدبر هذا الحديث أيها المغرور ، فإنك تزعم أنك عند الذنب تستحى من الآدميين ، وأراك لا تستحى من الكرام الكاتبين ، وأنت تخفى ذنوبك من المخلوقين ، وأراك لا تكترث لاطلاع رب العالمين ، تريد بزعمك ثواب الصادقين ، ومرافقة المرسلين أُفٍّ لك ! ويحك ! ما أعظم جهلك ! لا أنت من ملائكة الرب - عز وجل - تستحى ، ولا أنت بنظر الجبار إليك تبالى . ياقوم فتدبروا ما أصف لكم من معاصى القلوب ، وتفقدوا خفيات آثامها واعتقاد معاصيها ، وسوء ضمائرها ، ودقائق شهواتها ، ومكنون أهوائها ؛ فجاهدوا على نفى ما خالف رضوان الله تعالى من سرائركم فما عُصِمتم منه فاحمدوا الله عليه وما بُليتم به ، فبادروا بالإنابة والانتقال ، وتضرعوا إلى الله عز وجل فى العصمة والعفو ، فإن الله تعالى يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تبدون وما تكتمون إنه عليم بذات الصدور . إخوانى فمتى سلمتم من آثام القلوب ، فأنتم الناجون من عذاب الله تعالى عز وجل ، وإن أصررتم على خبث السرائر ، فما أقل عناء[٢٥٤] الجوارح ، وهذا فضل مابين الرجلين . أحدهما يتورع عن المعاصى المعروفة عنده وعساه جاهل بعظم الضمير فينطوى على كبائر تأتى عليه وما يشعر . والآخر عالم بأهواء النفوس متفقد لأحوال سرائره مجانب لمكاره الله فى ظاهر الأمور وباطنها ، فهذا أوزن من صاحبه كثيراً ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته . آمين يارب العالمين .

الباب التاسع والثلاثون
التنافس فى أعمال البر والتقرب إلى الله بطاعة القلوب

إخوانى : وإذا تقرب الناس إلى الله عز وجل ، بأنواع البر الظاهرة ، مثل الحج والجهاد والصوم والصلاة والصدقة والزكاة وتلاوة القرآن وغير ذلك فنافسوهم فيها واجعلوا أعظم الرغبة فى طاعة القلوب التى لا يطلع عليها الإنس ولا الملائكة ولا يعلمها غير علام الغيوب فإن القليل من أعمال البر كثير . بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الذكر الذى لا يكتبه الحفظة يزيد على الذكر الذى تكتبه الحفظة بسبعين**

(٢٥٣) يفرق : يخاف .

(٢٥٤) أى ما أقل عناءها فى فعل الخير ! فقد حفت الجنة بالمكاره ، بينما حفت النار بالشهوات !

ضعفاً »[٢٥٥]. ألا فتقربوا إلى الله بطاعة القلوب ، فإن فيها المعرفة بعظمة الله تعالى وكبريائه وجلاله وقدرته وعظيم قدره سبحانه ، فأين العالم بتعظيم الرب عز وجل وإجلاله وتكرمه والهيبة له والاستحياء منه وأنى يكون له ذلك ؟ ألا فتقربوا إلى الله بمحَابِّه ، وبغض مكارهه ، والرضى والغضب له وفيه . وتقربوا إلى الله تعالى ، بشدة الحب له ، والحب فيه ، والبغض من أجله . وتقربوا إلى الله بالمعرفة بأياديه الحسنة ، ونعمه المتظاهرة والباطنة وأفعاله الجميلة ، ومننه المتواترة على تواتر الإساءة منا ، وهو يعود بأنواع النعم علينا . ألا فتقربوا إلى الله تعالى بالخوف من زوال النعم ، وشدة الحياء من التقصير فى الشكر . وتقربوا بالوجل من مكر الله تعالى ، والإشفاق على إيمانكم . وتقربوا إلى الله بشدة الخوف منه ، وحقيقة الرجاء فيه ، والسرور بذكره ومناجاته والشوق إليه ، والرغبة فى جواره . وتقربوا إلى الله تعالى بذكر اليقين والتوكل عليه والثقة به والطمأنينة إليه والأنس به والانقطاع إليه ، وأين أولئك ؟! ألا فتقربوا إلى الله تعالى بالوقار ولين الجناح والتواضع والخشوع والخضوع ! وتقربوا إلى الله تعالى بالحلم والاحتمال وكظم الغيظ وتجرع المرارة . وتقربوا إلى الله تعالى بسلامة الصدور ، وإرادة الخير للأمة وكراهة الشر لها . وتقربوا إلى الله بالرأفة والرحمة والشفقة والحوطة[٢٥٦] على المسلمين . ألا وتقربوا إلى الله تعالى بالجود والكرم والتفضل والإحسان وصدق الوفاء . ألا وتقربوا إلى الله تعالى بغنى النفوس والقناعة والكفاف والرضى بالبلغة[٢٥٧] واليأس من نائل الناس . ألا وتقربوا إلى الله بالتثبت والعبرة والتأنى والنظر . وتقربوا إلى الله تعالى باستكثار نعمه لديكم ، والاحتقار ببركم والازدراء على أنفسكم ، واستعظام معاصيكم ، والحزن بتقصركم فى أمور ربكم . وتقربوا إلى الله بالتدبر لكتابه ، والإضمار على القيام بحدوده ، وإخلاص الأعمال له . وتقربوا إلى الله تعالى بمجاهدة الشيطان عن دينكم ، ومخالفة الهوى فى سريرتكم ، والتفقد لأحوالكم ، والتقوى فى كل أموركم ، والندم على ما أسلفتم . ألا وارغبوا فى مكارم

---

(٢٥٥) أخرجه أبو يعلى عن عائشة بلفظ : « لفضل الذكر الخفى الذى لا يسمع سبعون ضعفًا ، فإذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق لحسابهم ، وجاءت الحفظة بما حفظوا وكتبوا ، قال الله لهم : انظروا هل بقى له من شىء ؟ فيقولون : ربنا ماتركنا شيئاً مما علمناه وحفظناه إلا وقد أحصيناه وكتبناه ، فيقول الله تبارك وتعالى له : إن لك عندى خبيئاً لا تعلمه وأنا أجزيك به ، وهو الذكر الخفى » . وقال الهيثمى : فيه معاوية بن يحيى الصدفى ، وهو ضعيف . انظر (مجمع الزوائد) للهيثمى - كتاب الذكر - باب ماجاء فى الذكر الخفى (٨١/١٠) .

(٢٥٦) حاط : حوطاً وحياطة : حفظه وصانه وتعهده .

(٢٥٧) البُلْغَةُ : ما يكفى لسدّ الحاجة ولا يفصل عنها .

الأخلاق ، وتقربوا إلى الله بأداء الأمانة إلى من خانكم ، والإحسان إلى من أساء إليكم ، والإيثار على أنفسكم ، وإن كان بكم خصاصة . وتقربوا إلى الله بإيثار الوضعة[٢٥٨] على الرفعة ، وإيثار الشدة فى الله على الرخاء ، وإيثار الفقر على الغنى ، وأنّى لكم ذلك ؟! وتقربوا إلى الله بالفرح بمصائب الدنيا ، والسّرور بنظر الله ، واختباره فيما بلى وأولى ، وأنى لكم السرور بذلك ؟! وتقربوا إلى الله تعالى بذكر الموت و البعث دائماً ، وطول الوقوف دهراً طويلاً ، وبماذا يجيب عند السؤال ، وذكر الورود ، حقاً عليها ، وعبوركم على جسور الصراط . إخوانى فارغبوا فيما نعت لكم ، من أعمال القلوب وطاعتها ، فإن العارفين بها قليل ، والعاملين بها عزيز ، وقد جاءت الأنباء عن الله عز وجل ، وعن رسول الله ﷺ بفضل أعمال القلوب . وقد بلغنا أن الله جل ثناؤه يقول : « **لست أنظر فى كلامكم ، ولا إلى أعمالكم ، ولكن أنظر إلى هممكم ، وإلى قلوبكم ، فأيما قلب وافق همته محبتى جعلت ضمنه تسبيحا ، وتهليلا ، وتقديساً** »[٢٥٩]. وبعد : فإن طاعات الجوارح بالقلوب صلاحها وفى فساد القلوب تضييع لطاعات الجوارح فلا تضيعوا حظكم من أعمال السرائر ، ففيها الحزم والفضل العظيم ، فهذا الوصف يقصر عن قدرها عند تحصيل ما فى الصدور ، والناس عنها غافلون . ياقوم : فما أتاكم الله منها شكرتم ، وما قصرتم عنه حزنتم ، وتضرعتم إلى الله فى الفضل ، والتسديد لرضوانه فهذا فضل مابين الرجلين . أحدهما يستكثر من أعمال البر الظاهرة ، وعساه محزوب من جوانب الباطن[٢٦٠]. والآخر يستكثر من أنواع البّر ، ويعتقد جوائحه الباطنة ومثالبها ، متحرّ فى مسرات الله فيها ، فهو أوزن من صاحبه كثيراً وأعلى عند الله قدراً ؛ فهذا ونحوه من فضل العلم والعقل وفضل النية والإرادة فرق ما بين العبادة ، وقد يستوى الرجلان فى الورع والعقل والبر ، وأحدهما أرجح من الآخر عقلاً وأشد تحرياً لمسرات الله تعالى ، وأبلغ فى رضوانه . وهب الله لنا ولكم علماً نافعاً وعقلاً راجحاً . إنه جواد كريم رءوف رحيم .

---

(٢٥٨) المراد الذلة على المسلمين . ويقال : وضع فلان نفسه : ضد رفعها .

(٢٥٩) أخرجه أحمد فى المسند «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ، انظر المسند (٢/٢٨٥) .

(٢٦٠) المراد : وعساه فاسد السريرة .

الباب الأربعون
آفات العلم

إخوانى : وسألتم عن أحوال الذين أظهروا العلم وأحوال البر ، ورغبوا فى حمول الذكر : ما أرادوا بذلك من سره ؟! إخوانى لقد سألتم عن أهواء مختلفة ، وإرادات متباينة ، وعقول متفاوتة ، وسأصف بعض أحوالهم ؛ بمنِّ الله وإرشاده ؛ وذلك أن منهم من يظهر ما عنده من العلم والعمل لينال به من عرض الدنيا ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك . ومنهم ضعيف الرأى لا يقاد لعلمه[٢٦١]، جاهل بأدواء النفوس ، قليل المعرفة بمكائد الشيطان ، وهو يظهر كثيرًا من العلم والعمل ، رغبة فى ثواب إرشاد الناس ، وقد غرق فى بحار الفتن والجهل ، وأتت عليه مكائد الشيطان ، وما يشعر ! ومنهم مُتَداهٍ[٢٦٢] فى نفسه مدع للعلم والفطنة بمكائد الشيطان ، فيظهر كثيراً من أعمال بره وعلمه فى الاقتداء ليكون له مثل أجور القابلين منه فنصَب[٢٦٣] لذلك نفسه ، وسهر ليله ونهاره ، واشتد عليه حرصه وهو به مسرور ، ونفسه تمنيه أن الذى هو فيه من أعلى الأعمال عند ربه وأنه مأجور على حرصه وسروره باجتماع الناس إليه للمنافع التى أنالهم الله على يديه بزعمه فيما يرى فلا يشك أنه كذلك فى مبلغ علمه ، وأنه ناظر لنفسه بزعمه ، يرى الفضل بإظهار ما أحسن من قوله وفعله يؤمل العزم فى أمره ، ويطمع فى دفع الفتنة عن نفسه ، وينفى الآفات عن علمه ، يرتجى الصدق والإخلاص فى أحواله . وعساه كالذى بلغنا أن الشيطان يقول : من زعم أنه بعلمه امتنع منى ، فبجهله وقع فى حبائلى ؛ فالجهل أولى به إذا ادعى النفاد فى علمه والقوة فى عقله وفعله ، يتصنع فيما أظهر من القول والعمل ، كيما يؤكد بهما أمره ويصوب بهما فعله ، ويثها فى الآفاق لمنافع الناس بزعمه فيقتبس ذلك عنه ويعلو بها ذكره وكذلك أمنيته وما يشعر ! وعساه كبعض المغترين من قبله ؛ فإنه بلغنا أن حكيماً من الحكماء قرأ ثلاثمائة وستين مصحفاً[٢٦٤] ، فأوحى الله تعالى إلى نبى زمانه قل له : إنك ملأت الأرض نفاقاً ، وإن الله لم يقبل من نفاقك شيئاً . وعساه يحتمل

---

(٢٦١) أى لا ينقاد لعلمه فيعمل بما علم .

(٢٦٢) أى يطويها على الدهاء والمكر .

(٢٦٣) أى وطّنها وأعدها لذلك .

(٢٦٤) المصحف : مجموع من الصحف فى مجلد . وغلب إطلاقه على القرآن الكريم .

النّصَب والتّعب لإظهار علمه ، وإصراف وجوه الناس إليه لا يعدل به شيئاً ولا يؤثر عليه بِرّاً . وعساه مشغول به عما أوجب عليه من أمرهم ، وهو مع ذلك لا يألوا فى حسن النطق وإتقان الكلم ، ويزعم أن ذلك حكمة تجرى على لسانه . وعسى ذلك تجويد من نفسه لكلامه وما يشعر ! وعساه يظن بلا شك أن القابلين منه : رغبتهم فى علمه ، ورضاهم إنما هو لصدقه وإخلاصه ونفاد علمه ، ولولا ذلك ما قبلوا منه ، فقد دهاه الشيطان ، وما يشعر ! وهو يكثر حمد الله فيما أجرى من المنافع على لسانه . وعساه هنالك له أمرٌ وأمارة يتنعم بها لنفسه ، يكرم من صوب فعله ويبر من حمد أمره وينقبض عمن خالفه ويجفو من استفاد من غيره ، ويعصى من خالف هواه ، ويجد على من رد شيئاً من قوله متجبر فى غضب مستنصر لنفسه ، يشفى بذلك غضبه لربه تأديبًا لمن خالفه ، وقد دهى وما يشعر ! وعساه يفضل بعض أصحابه على بعض ، لا يساوى بينهم فى القدر عنده ويزعم أن أخطأهم لديه أفضلهم علمًا ودينا ، وإنما كان المقدم عنده وأعزهم عليه أبرهم به ، وأشدهم موافقة لهواه وتعظيماً له وتزينًا لأمره ، وهذا من خبايا النفوس ، والعالم فى غفلة وما يشعر ! وعساه يلبث بذلك عمره أو برهة من عمره مموهًا عليه فى أمره يلتمس الأجر فى غيره ، ويضيع الحزم فى خاصة نفسه ، ويطمع أن يكون بما هو فيه من الثواب ، ما يكفر آثامه ، ويكون فيه عوض مما ضيع من شأنه ، وقد دهى وما يشعر ! وعسى الأخاويض[٢٦٥] تكثر فى أمره فقوم ينقمون عليه ويعيبون له فعله . وآخرون يحققون فعله ،ويحسنون به الظن كحسن ظنه بنفسه . وقوم مستور عنهم شأنه كما كان عنه مستور أدواء نفسه فهو مستور بالمختلفين إليه شديد الإعجاب بالقابلين به . وعساه يحقق صدقهم ، ويصحح إخلاصهم ، ويزين أفعالهم ، وأصحابه فى ذلك مستورون عنه بحالتهم عنده يعجبون بمنازلهم منه فاتفقت أهوائهم على تزكية بعضهم بعضاً . وبعد : فإن علا ووصلت النفوس إلى أمنيتها من اضطراب الصوت وعلو الذكر ، وكادت النفوس تستصغر من ليس فى شأنها ، وتستجهل من جهل علمها ، وتزدرى من لم يكن مثل أحوالها ، وما يعلم القوم ذلك من أنفسهم قد دهوا وما يشعرون ! وبعد : فإن قديم الحيل[٢٦٦] يستقل لهم ما قد دهاهم به فيجدد لهم مكائد موبقات ، وعساه يأتى الكبير والمنظور إليه منهم كهيئة الناصح له فيخطر بقلبه : أنك قد أوتيت حظًا من العلم ،

(٢٦٥) خاض فى الأمر : تمادى فيه .

(٢٦٦) صاحب الحيل من قديم ألا وهو الشيطان منذ أن احتال على أبينا آدم فى الجنة .

وأخذت منه بحمد الله نصيبًا ، غمًا لك والشهرة والتعرض للفتنة شأنك والعمل بما علمت . ويحه لقد دهاه ، وعرَّضه للهلاك وما يشعر ! فعند ذلك كل امرىء ينفرد من أكابرهم فى عصابة اتبعوه من أصاغرهم فاعتزل إعجابًا بما وصل إليه من العلم والعبادة ، وما يشعر بإعجابه ولا يشك أن الصواب فى اعتزاله فى قوله وفعله ، ولا يعلم ما قد دهى به فحينئذ يخالف الشيطان بين أهوائهم ، ويفرق شملهم ويشتت جمعهم ، ويجعلهم أحزاباً ، ويزين عند كل صنف منهم شأنه ، ويصيب عندهم أحوال من يخالفهم ، فأغوى بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عثرات بعض ، ولقَّن بعضهم حججاً على بعض ، كهيئة الناصح لهم ، فيكيد جمعهم بمكائد وما يشعرون . وعسى القوم يبدون ما فى النفوس ، ويطلبون العثرات ، ويظهرون العيوب ، ويتفكهون بالغيبة ، وبقول الزور ، ويترامون بالبهتان ، ويشد بعضهم على بعض بالعظائم وينسبه إلى الكفر والضلال ، أعاذنا الله وإياكم مما حل بهم ! إخوانى : لو شغل القوم بينهم ، ووضعوا أنفسهم وأنزلوها منازل الاستفادة من غيرهم ، واقتبسوا العلم من أهله لكانوا أولى البلوغ الجيد أجراً . ويحكم لقد بلغ بهم الشيطان فى أودية المكاره ، وغرَّهم بفنون من الحسنات أوقعهم بها فى باطن السيئات ، وفى النفوس من الموبقات ، ورقى بهم فيما يحسبون إلى الدرجات ، ولقد حطهم بمكائده فى الدركات فجمعهم فى سفينة تتلاطم بهم الأمواج ، وجهلوا أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان ، إلا من عصم الله وما يشعرون ، ولعمرى لئن أيقظهم من رقدة الغفلة ، ونبههم من حيرة الهوى ، وعرفوا أدواء السرائر ، والأهواء الخفية ، وتدبروا أمرهم ونصحوا أنفسهم ، ليجدون إخمال الذكر وإخفاء عمل البر لهم أولى وأقرب إلى الله وليجدون النفوس منغصة لتفقد أسوائها ، نافرة من مخالفة أهوائها ، مستحسنة لما ظهر من أعمال برها ، حائدة عن خالص فعلها ، ملبسة عليها أمرها ، مبغضة لكثير من حقوق ربها متهاونة بالورع فى كثير من أحوالها ، قاهرة لعقولها متقلبة فى شهوات قذرها لمْ تصِحّ حَلالها ، مسوفة بالإنابة من أسواء سرائرها ومن تبعات العباد لديها مطوية على أدواء قصر علمهم عنها ، و لم ينتبه القوم من رقدة الهوى ليعرفوا فقرهم إلى الإنابة من أعمال استحسنوها ، والتمسوا عليها ثوابًا ، وعسى العقوبة أولى بهم فيها . ألا فاحذروا ما نعت لكم من أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان فإن فى القول والعمل المكتوم فينا لهوى وشهوات ، وإرادة فى النفوس كثيرة ، فما ظنكم بأدواء النفوس إذا ظهر العلم والعبادة ؟! ياقوم

فلا تعدلوا بالسلامة شيئاً ، واقبلوا النصيح الشفيق عليكم ، ولا ينبئك مثل خبير ، والله شهيد على ما تعملون ، وفقنا الله وإياكم ، لكل خير بمحمد وآله يارب العالمين .

الباب الحادى والأربعون
إخلاص الطاعة

إخوانى : وسألتم عمن رغب فى خمول الذكر ، وأخفى أعمال البرّ ، أولئك أولو الألباب ، الذين أفادهم الله عز وجل من خزائن علمه ، فكان الغالب على همهم وعزمة قلوبهم وإرادتهم وأمنيتهم ، ألا يطلع غير الله تعالى على شيء من محمود أمرهم ، فما أسروه فبالرشاد ، وإن أعلنوا شيئاً فبالسداد ، وهم فى ذلك أصناف : فمنهم من يخفى أعماله وجلاً من مكائد عدوه الذى يوقعه فى الفتن ، ويحبط الأعمال ويخيب سعى العاملين ، لو يجد العالم المتحرز سبيلاً إلى أن يسرَّ أعماله عن نفسه وعدوه ، لفعل ذلك خوفاً من أعداء دينه وعجزاً عن مجاهدة نفسه وعدوه ، فلم يعدل بالسلامة شيئاً . ومنهم من يخفى أمره إيثاراً لخمول الذكر ، ورغبة فى فضل ثواب السر مع طلب السلامة ، فأسرَّ أحواله بمجهوده . وقد بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **ما أحبّ أن يعرفنى بطاعته غيره** » . وبعد : فإن ظهر أمره بمكان فرَّ بدينه إلى موطن خمول الذكر – إن وجد إلى الفرار سبيلاً – وقد تحدث أمور يضطر المرء فيها إلى إظهار بعض قوله لحاجته إلى معرفة ما اضطر إليه ، ولحاجة غيره مضطر إليه ، فيبدى على الضرورة بقدر الحاجة مستفيداً ومفيداً يتضرع فى خلال ذلك إلى الله عز وجل فى السلام فى فتنة ماظهر منه ، كفعل المحبين لخمول الذكر فنال ثواب حبّ الإخمال وثواب السّر ، ووصل إلى معرفة ما أراد من العلم ، وهذا على سبيل السلامة من الفتنة بعصمة الله وتأييده . ومنهم محفوظ بجواهر الفوائد مُسَدّد فى فعله طاهر فى أحواله مجانب للآثام واللغو متبرىء من الأسواء منزه عن الأدناس ، قبض الجوارح عن المنهيات والتبعات[٢٦٧]، ورفض الحرام والشبهات وتطهر من الاغتياب ، وتقلل من الشهوات واقتصر على البلغة من الأقوات ، وجلى الرين[٢٦٨] عن القلب بالتدبير والاعتبار فعاين ما فى الدارين من الجزاء من السعادة والشقاء وجَدّ فى الهرب فما أبقى وانكمش فى طلب

(٢٦٧) المراد : العواقب ، وما يترتب عليها من أثر .

(٢٦٨) الرَّينُ والرَّانُ : الغطاء والحجاب الكثيف ، وجاء فى التنزيل : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

مارجى ، وشغل بهما عن نعيم الدنيا فاحتمل من أجلها النصب ، وتجرع من أجلها المرارة ، وجاهد فى الله العدو فلم يصد طرفة عين على معصية علمها ، ولم يلبث ساعة فى زلة عرفها ، فاستغفر من كل سيئة جهلها ، ولم يرض من نفسه بالتقصير فى رضوان الله ، ولم يهمل نفسه فتغفل عن ربها ؛ فارتقى بعلمه وعمل فى الوعيد بقلب موقن بوعيد الله ، هارباً من مساخطه ، خاشعًا مشفقاً وَجِلاً من عقابه وعذابه ، وعمل فى وعده بقلب موقن بثواب الله ؛ راغب مخلص مُجِدّ منكمش ، وعمل فى ضمان الله بكفالة الأرزاق بقلب موقن بوفائه متوكل واثق معتمد . وعمل فيما بُلى من المكاره بالصبر والرضى ، والمعرفة بحسن النظر من الله سبحانه ، والاختيار له . وعمل فى تواتر النَّعمَاءِ عليه بقلب عالم بعظيم النعم ، عارف بتقصيره فى الشكر لا يحقِّر شيئًا يتحبب به إلى مولاه ، ولا يستكثر شيئًا يعمله لربه عز وجل . وعمل فى محاب الله بالزهد فى الدنيا ، والإيثار على نفسه مسروراً بالمصائب ، فرحاً بالمكاره ، متيقظاً من الغفلة ، كلامه ذكر ، وصمته فكر ، ونظره عِبَر ، عالم بما يحب ويكره ، عالم بما يفضل الخمولَ للذكر ، وإخفاء العمل ، عالم بفقر العباد إلى حدود الدين ؛ فيبدى لهم حاجتهم إليه بمبلغ الحاجة ، وَجِلاً من كتمانِه عِلْمَه عن أهله ، مشفق على إرشادهم إذا استرشدوه ، صابراً محتسباً ما إذنّبه إليه العباد ، فإنه بلغنا – والله أعلم – أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى داود – عليه السلام –: « **إن صلح على يديك عبد من عبيدى كتبتك عندى جهيداً**[٢٦٩]، **ومن كتبته جهيداً فلا وحشة عليه ولافاقة ، ياداود لأن تَرُدَّ عبداً أبق**[٢٧٠] **منى إلَىَّ أحب إلَىَّ منْ أن تلقانى بعبادة سبعين صِدِّيقاً** » . فرغب الموقن إلى إرشاد العباد إلى ربهم ، وعمل بالمراقبة لله خاصة نفسه ونصح لله فى خلقه وقام بأمر الله فى عباده ، يعمل بعلم نافع وورع صادق ، صبر فيهم على الأذى وكظم لهم وردّ عنهم الغضب ، ولقّيهم بالتى هى أحسن ماشاء بهم ، طلق سهل ، متكرّم جواد ، قريب متواضع ، لطيف بهم فى معاشرتهم ، رفيق بهم فى التأديب لهم ، وناظر فيما اشتبه عليهم ، وقبل ما أورد عليه من الحق ، ولان لهم فى المذاكرة ، وجذّدَ لهم ذكر أيادى الكريم ، وقديم إحسانه ، وتواتر النعم على قلة الشكر من العباد ، وذكّرهم حلم الإله وتأنّيه بهم على تعرضهم لمساخطه ، وحذرهم بمساخط الله ونقمائه وندبهم إلى التحبب إلى الله عز وجل بمحابه ، فلم يزل فى تحبب الله إلى خلقه وتحبب العباد إلى خالقهم ،

---

(٢٦٩) جهيداً : أى ممتحنًا ، يقال : جهَد بفلان : امتحنه ، فهو جاهد والمفعول به مجهود وجهيد .

(٢٧٠) أبق : هرب .

ففى الله أحبهم ، وفى الله أبغضهم ، ومن أجله سخط عليهم فعمل برضوان الله فى عباده ولم يعد أمر الله عز وجل فى نفسه خاصة وفى كل أحواله ، فهو العارف بربه عز وجل المتأسى بنبيه محمد ﷺ ، وهو موضع الاقتداء به ، وهو المسدد فى أمره ، والموفق فيما أسر وأعلن من فعله وقوله وقد جاء الأثر بنعته[٢٧١]. بلغنا أن بعض القارئين تلا هذه الآية : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[٢٧٢] قال : هذا حبيب الله هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى الدنيا دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فى دعوته ، وعمل صالحاً فى إجابته ، وقال : إننى من المسلمين ، إن هذا خليفة الله[٢٧٣]. إخوانى هذا نعت المرسلين والخلفاء المهديين فهذا الوصف لا يليق بنا ، ولا يشبه أمثالنا ، فلا تجهلوا أمركم ، وتذكروا الذى تعلمون من أسواء أنفسكم ، وانتبهوا من الغفلة التى دهتكم ، فإن أخذ الإله عليكم فإنكم بالرجم أولى من الاقتداء بكم ، فاقبلوا نصح الشفيق عليكم ، فأسروا أمركم بمجهودكم ، وارغبوا فى خمول ذكركم ؛ فإن السلف الصالح لم يعدلوا بالسلامة شيئاً ، وهم الأخيار فى زمان الأخيار ، وكيف بكم من نُفَاية الأمة بين صرع الدنيا . وبعد فلو وافق الأخيار دهركم هذا ؛ لكانوا أشد منكم فراراً ، وأبعد آثاراً . وقد قال بعض أهل العلم : « **لو أن رجلاً من السلف الصالح نُشِر من قبره ، فنظر إلى قرائكم ما كلمهم ، ولقال لسائر الناس : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب** » . وعن بعضهم قال : « **لا خير فى الذكر إذا أعلن** » . وياقوم فارغبوا فى خمول الذكر ، ولا تعدلوا بالسلامة شيئاً .. وهب الله لنا ولكم السلامة فى جميع أحوالنا . آمين يارب العالمين .

تم بحمد الله وعونه
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(٢٧١) أخرج أبو داود وأحمد عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال : « من أعطى لله تعالى ، ومنع لله تعالى ، وأحب لله تعالى ، وأبغض لله تعالى ، وأنكح لله تعالى ؛ فقد استكمل الإيمان » ، وفى لفظ آخر « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » ، انظر : مسند أحمد (٤٣٨/٣) وسنن أبى داود – كتاب السنة – باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه .

(٢٧٢) فصلت : ٣٣ .

(٢٧٣) سبق تخريجه .